الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
المركز الجامعي لميلة

معهد الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

المسائل النقدية في رسالة الغفران لأبي العلاء المعري

مذكرة مقدمة لنيل شهادة ليسانس، في اللغة والأدب العربي

تخصص: الأدب العربي

إعداد الطالبات:

- نعيمة بلحمرة.
- صورية كشود.
- لمياء سراط.

إشراف الأستاذ:

منير بن ذيب.

السنة الجامعية: 2012/2011

مقدمة :

يعتبر أبو العلاء المعري خاتمة شعراء العصر العباسي الثالث،وهو الشاعر الحكيم الفيلسوف أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد التنوخي،حيث يعد من أقطاب العلم والأدب ،له مؤلفات كثيرة في الشعر والأدب وما يهمنا نحن في بحثنا هذا هو مؤلفه المشهور باسم "رسالة الغفران"وهي رسالة من بين الرسائل الكثيرة التي كتبها "أبو العلاء". والحديث عن رسالة الغفران ليس كالحديث عن بقية الرسائل الأخرى لأن لها شأنا خاصا من حيث موضوعها المتفرد .وهي رسالة كتبها أبو العلاء في عزلته وضمنها نقده لشعراء الجاهلية والاسلام والأدباء والرواة والنحاة على أسلوب روائي خيالي لم يسبق إليه أحد .

فتخيل نفسه في العالم الآخر،وتخيل الجنة والنار،فوصف لنا ماشاهد هناك ،كما فعل "دانتي"الشاعر الإيطالي في "الكوميديا الالاهية" وكما فعل" ملتن" الإنجليزي في"الفردوس المفقود" لكن أبا العلاء سبقهما ببضعة قرون .

أما اختيارنا للموضوع فكان اقتراحا من أحد الأساتذة، وما دفعنا للقبول به والعمل عليه هو أن عنوان الرسالة جذبنا كونه يثير الفضول لمعرفة محتوى هذه الرسالة والمقصود بالغفران،بالإضافة إلى معرفة القضايا التي ناقشها مع مختلف شخصيات الرسالة وسبب تصنيفه لهم سواء في الجنة أو في الجحيم.

وأثناء انجازنا لهذا العمل واجهتنا صعوبات لعل أهمها هو صعوبة فهم أسلوب المعري كونه استعمل في رسالته لغة قديمة كان صعبا علينا فهمها ،بالإضافة الى أن الرسالة تحتاج للدراسة من العديد من الجوانب ونحن اخترنا الجانب الأوسع ، كذلك فقر المكتبة والتي لاتشجع على البحث في مثل هذه المواضيع .ورغم هذا فإننابذلنا مجهودات للإستفادة من المراجع التي تحصلنا عليها والإستفادة من التوجيهات التي تلقيناها من طرف الأستاذ.

وفي عملنا هذا قمنا بتقسيم البحث إلى مدخل وفصلين وخاتمة ،تناولنا في المدخل" أبو العلاء" في التسمية والنشأة كما عرفنا برسالة الغفران ودواعي كتابتها.

أما في الفصل الأول فقد تناولنا رحلة أبي العلاء في الجنة والجحيم معرفين بالشعراء الذين ذكرهم ومشيرين الى القضايا التي ناقشها معهم .أما في الفصل الثاني فقد قمنا بالتركيز على القضايا النقدية التي ناقشها ابو العلاء مع الشعراء في رسالته ثم ختمنا بحثنا بخاتمة .

واعتمدنا في بحثنا هذا على العديد من المصادر والمراجع لعل أهمها كتاب "عائشة عبد الرحمان""رسالة الغفران دراسة نقدية"، واتبعنا في بحثنا هذا منهج تحليلي وصفي للمشاهد المختلفة .

وفي الأخير نتقدم بالشكر إلى كل من ساعدنا من قريب أو من بعيد في انجاز هذا البحث.

مدخل:

التعريف بأبو العلاء المعري:

1- إسمه:

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد بن سليمان بن أحمد بن سليمان بن داود بن المطهر بن زيادبن ربيعة بن الحارث بن ربيعة بن أرقم بن أنور بن أسحم بن النعمان، بن عدي بن عبد غطفان بن عمر بن بريج بن جريمة بن تميم الله بن أسد بن وبرة بن ثغلب بن حلوان بن عمر بن الحاف بن قضاعة.

والملاحظ أن نسب " أبي العلاء" ينتهي إلى قضاعة، وقضاعة قبيلة متشعبة ذات أطراف وغصون، كان لها شأن في الجاهلية والإسلام.

وفي نسبها إختلاف بين العرب فبعضهم يصلها بمعد بن عدنان وبعضهم يرتقي بها إلى يعرب بن قحطان، ويرى " طه حسين" أن قضاعة تصل لقحطان فهي يمانية لا يماني لا عدنانية، وعلى رأي " العقاد" أن مولده على مدرجة الصقالبة والروم ويستدل على قوله بما أنشده "المعري" قائلا:

لايفخرن الهاشم على امرئ من آل بربر

فالحق يحلف ماعلى عنده إلا كقنبر.[1]

2- كنيته:

كنيته أبو العلاء ولقبه المعري، واشتهر بكنيته ولقبه أكثر من إسمه الأول والذي يبدو أنه لم يكن راضيا لا عن كنيته ولا عن إسمه لأنه لم يكن يرى نفسه كفؤا لهما، وحسب قول " طه حسين": وراى – أبو العلاء- أن من الظلم أن ينضاف إلى التصعيد والعلو و إنما العدل أن ينضاف إلى السقوط والهبوط، وفي لزومياته إشارات عديدة منها قوله:

دعيت أبا العلاء وذلك مين ولكن الصحيح أبو النزول[2]

[1] -تغريد زعيمان، الأراء الفلسفية عند أبي العلاء وعمر الخيام،ط1،الدار الثقافية للنشر، القاهرة، 1423هـ- 2003م ص 121

[2] -المرجع نفسه،ص 122

وقال في إسمه الأول "أحمد":

وأحمد سماني كبيري وقلما فعلت سوى ما أستحق به الذما.

كما أشار إلى كنيته هذه في كتابه ' الفصول والغايات' قال:

كنيت وأنا وليد بالعلاء فكأن علاءا مات وبقيت العلامات.

3- لقبه:

اما لقبه "المعري"نسبة الى "المعرة" :مسقط رأسه وهذه المدينة مسماة بهذا الإسم ، وفي أول الفتح كان يقال لها " معرة حمص" وقد اختلف العلماء في الأصل الذي أشتق منه لفظ : المعرة : و الأصل اللغوي في لفظ المعرة هو موضع القر أي الجرب ومما يدل على هذا قول أبي العلاء :

يعبرنا لفظ المعرة أنه من القر قوم في العلا غرباء

وما لحق التثريب سكان يثرب عن الناس لا بل من الرجل غباء[1]

ولها في اللغة معان كثيرة منها : الإثم و القزم والدية و الجناية وتلون الوجه عند الغضب و الأمر القبيح و الأذى والشدة و المسبة والأمر المكروه و كوكب دون المجرة من ناحية القطب الشمالي .

ومما يستوجب التأكيد ، قوة تأثير "المعرة " و"المعريين "في تكوين أبي العلاء . فقد كانت "المعرة " مند القرن الرابع الهجري حتى القرن السادس تعجب بالقراء و المفسرين و المحدثين و اللغويين و المؤرخين و الشعراء و المؤلفين في علوم مختلفة . [2]

4- مولده:

أبو العلاء من المشاهير الذين إلتبس تاريخ ميلادهم ولذلك نجد المؤرخين كثيرا ما يختلفون في تعيين مولده لأنهم أجمعو على يوم الولادة من النهار، فقالو كان ذلك عند مغيب الشمس وأجمعوا على يوم الولادة من الأسبوع

[1] - المرجع السابق،ص122

[2] -م،ن ص123.

،فقالوا كان ذلك يوم الجمعة و أجمعوا على تعيين الشهر من السنة ،فقالوا كان ذلك في ربيع الأول، غير أنهم اختلفوا في تعيين السنة و التاريخ الشهري.

أما القول الذي أيده إبن العديم هو ما ذكره جمهور المؤرحين على أن أبا العلاء ولد في" المعرة" عند غروب الشمس من يوم الجمعة لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة 363هـ وقد نقل ذلك "أبو الخطاب العلاء بن الحزم" عن "أبي العلاء" نفسه وذكره أبو غالب همام بن الفضل بن جعفر بن المهذب المعري التنوخي .ثم أخذ عنهما أغلب المؤرخين ،ويوافق ذلك في التاريخ الميلادي يوم الجمعة 26كانون الأول سنة 973م.[1]

أما بالنسبة لمكان ولادته فلم يختلف المؤرخون في ذلك لأن" أبا العلاء" لم يبرحه حتى عهد الحداثة،وأجمعوا – كما ذكر فيما سبق –على انه ولد في "معرة النعمان".[2]

أمه هي بنت محمد بن سبيئة وأبوه من أهل حلب وخاله علي بن محمد سبيئة توفية والدته وهو غائب عنها حين رحل إلى بغداد سنة أربعمائة وقد رثاها بأبيات هي في "سقط الزند".[3]

5– نشأته:

نشأ بالمعرة وأخذ النحو واللغة عن أبيه وعن محمد بن عبد سعد النحوي بحلب.[4]

فقد بدأ " أبو العلاء" صغيرا في تلقي العلم على أبيه، وأول ما بدأبه علوم اللسان و الدين على دأب الناس في ذلك العصر، وتلمح الفائدة التي جناها من هذه الدروس إذ بدأ يقرض الشعر وله إحدى عشر سنة، ثم ارتحل إلى حلب ليسمع اللغة والأداب عن علمائها تلاميذ" ابن خلوية" وفي حلب شهر تبريز المعري وروايته للأدب والشعر، تلفى دروسه في السنة عن "يحي بن مسعر"، ومن حلب توجه إلى "أنطاكية"، وكانت بها مدينة عامرة تشتمل على

[1] - تغريد زعيمان، الأراء الفلسفية عند أبي العلاء وعمر الخيام،ص124.
[2] -المجع نفسه ص125
[3] -نقلا عن الموسوعة العربية العالمية global.arabic encyclopedia
[4] -أحمد، تيمور باشا،أبو العلاء المعري نسبه ،،ط1، أخباره، شعره، معتقده، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر،القاهرة،1359ه،1940م،ص16

نفائس من الكتب فحفظ منها ماشاءالله أن يحفظ، ثم سافر إلى طرابلس، الشام ومر في طريقه باللاذقية، ويقال أنه درس النصرانية واليهودية جميعافقد كان استعداده للعلم عظيما وذكاؤه ملتهبا.

وعلى الرغم من ولادة " أبي العلاء" في عصر انحلال الدولة العباسية وشيخوختها، فقد نشأ في عصر بلغت فيه الثقافة العربية الإسلامية أعلى ذروتها بعد أن هضمت ونشرت تراث مختلف الحضارات اليونانية،الهندية والفارسية وأرست أصول علوم الدين والفقه والتفسير، الحديث واللغة والأداب والشعر والكلام والفلسفة والطبيعة والكيمياء، والرياضيات والفلك وغيرها مما فاضت به خزائن الكتب في عواصم البلدان المتنافسة على الفضل والعلم والأدب.[1]

رسالة الغفران:

رسالة الغفران رسالة نقدية ألفها "أبو العلاء في عزلته سنة 424 هـ وهو في الستين من عمره.

أملى "أبو العلاء " هذه الرسالة في معرة النعمان،ردا على رسالة تلقاها من أدبي حلبي من معاصريه هو " ابن القارح" وهي رسالة إخوانية من الرسائل الطوال التي تجري مجرى الكتب المصنفة. ويستطرد فيها " المعري" إلى رحلة خيالية في العلم الأخر ويذهب إليها " ابن القارح" ويوجه فيها خطاه بين الجنة والجحيم، وهذه الرسالة من تراث " أبي العلاء " في عهد عزلته وفي صميم الشطر الثاني من رحلة حياته، وكان يودع العقد السادس من عمره ويستقبل السابع.

وقد أملى الكتابة بعد أن أنضجته الأيام بتجاربها ومحنها وقد طال تأمله في مصير الإنسان، فقد كان المعري متأثرا بموقفه من الدنيا والناس ورأيه في " ابن القارح" الذي أعطاه المعري الدور الرئيسي في " الغفران".

والغريب هو المقدمة غير المألوفة التي افتتح بها رسالته إلى " ابن القارح " حيث قاده إلى رحلة عجيبة إلى العالم الأخر و فرض عليه دور البطولة في "الغفران ".[2]

[1] –عبد القادر ،محمود،رحلة إتى الدار الآخرة مع أبي العلاء ودانتي،مركز الكتاب للنشر،مصر الجديدة،القاهرة،1997،ص12

[2] -سناء،خضر، النظرية الخلقية عند أبي العلاء بين الفلسفة والدين،دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر الإسكندرية،1999م،ص28

أما العقدة في رسالة الغفران فتتمثل في المعادلة الصعبة بين زهد مؤلفها وشهوانية بطلها، وفي التورية الدقيقة لسخرية "أبي العلاء" بـ "ابن القارح" في هذا الدور العجيب الذي اختاره له على وجه التمني والرجاء من صديق يطمح له في حسن المآب، أو لعل عقدتها في المأزق الحرج الذي يجعل تصور "أبي العلاء" لعالمه الآخر مظنة التباس بالحياة الآخرة في العقيدو الدينية.[1]

ورسالة الغفران هي قصة نثرية في قسمها الأول قائمة على السجع والتصنيع وفي قسمها الثاني جواب على عدة مسائل.

قيمة رسالة الغفران تتجلى في أسلوب الصنعة وحفاظ الشعر على أوزانه وعلى وجود عدد من المسائل النحوية واللغوية قد ضمنها فنونا شتى في اللغة والأدب ونحا فيها نحوا غريبا فاستطرد إلى الجنة فوصفها وصفا يشوق النفوس إليها ويرغبها في نعيمها، وذكر النار وأحوالها لا تسأمها النفس وفيها تظهر قدرة المعري اللغوية كما تبدو فيها مقدرته على السخرية و النقد. [2]

وفي القرن 19 ميلادي بدأ إسم "رسالة الغفران" يدوي في الأوساط الأدبية والفكرية، في العالم الأروبي مقترنا بالكوميديا الإلهية " لدانتي" على سبيل تشابه رحلتيهنا إلى العالم الآخر.[3]

يكمن القول أن أول نشرة لرسالة الغفران جاءت عن طريق المستشرق " نيكلسون" عام 1899 وعام 1902.

أما في العالم العربي فلم تحقق رسالة الغفران وجودها الحقيقي الأصيل إلا مع الجهد الذي قامت به الأستاذة الدكتورة" عائشة عبد الرحمان" في نشرها عن أدق نسخة خطية كانت قائمة في تركيا.[4]

بواعث تأليف رسالة الغفران:

[1]- المرجع السابق ،ص28

[2] -عبد القادر محمود ،رحلة الى الدار الآخرة مع المعري ودانتي،ص53.

[3] - أحمد، تيمور باشا،أبو العلاء المعري نسبه ،ص65

[4] -م،ن ص54.

يتضح لأول وهلة أن رسالة الغفران كتبت ردا على رسالة ابن القارح ولكن يقرر النقاد أن ثمة عوامل عديدة أدت بأبي العلاء المعري إلى وضع الرسالة.والرد على الرسالة كان العامل المباشر الذي تذرع به المعري لإظهارها ،وكان من عادة علماء عصره أن يظهروا براعة تصرف في فنون اللغة واطلاع واسع على غريبها ووعرها وثقافة أدبية قل نظيرها.[1]

كما كانت فكرة البعث والنشور وما بعدهما من حساب وثواب وعقاب من الأفكار التي سيطرت على نفس أبي العلاء المعري معظم حياته فملأ بها أشعاره وكتاباته، وكثيرا ما تمنى أن يلقى بعض من ماتوا فيسألهم عن ما بعد الموت من شقاء ونعيم لتنتهي بذلك شكوكه وحيرته.

كما كانت الرسالة متنفسا لقلب الشيخ المعري الذي نزع إلى الخيال ينال به عالما يبنيه في الواقع، إذ كتبها وهو في الستين من عمره تقريبا، وبعد أن قطع مراحل الحياة الدنيا وأشرف على العالم الآخر وانصرفت نفسه إلى التأمل الطويل الحزين في مصير الإنسان، وفي ذلك الجو القاتم ظهرت رسالة الغفران وفي تلك الحالة النفسية الأليمة أملى أبو العلاء رسالته، وإنما هي حالة تفسر لنا ما في الغفران من أشواق مستثارة إلى الرغبات المادية، وعرض متفنن لنعم الحياة منقولا إلى العالم الآخر، حيث كان يرغب في أن يصرح بكل عقائده وآرائه بوضوح، ولكنه آثر أن يستر ذلك بستار من الغريب والتكلف اللفظي وأن تكون فكاهته سترا لسخريته مما شاع بين المسلمين من صور ومبادئ مصدرها الدين.[2]

[1] -عبد القادر، الخلادي،عمر الدسوقي،محمد الصادق،عفيفي،الدراسات الأدبية،رسالة الصحابة ،رسالة الكندي ،رسالة الغفران،ط5،ج2،دار الفكر،1970،ص49.

[2] -م،ن ص50.

رحلة أبي العلاء في العالم الآخر:

سوف نمضي مع أبي العلاء في رحلته التي اصطنعها صاعدا ،وهو يعبر جسر الدنيا إلى ضفاف الآخرة ، مصاحبا الأدباء والشعراء والعلماء والمفكرين في ساحات النعيم والجحيم ،ملقيا في جنات النعيم من كان يحسبهم من أهل الجحيم وحاشدا في الجحيم من كنا يظنهم من أهل الجنان، جزاءا لما رآه في فكره عن أولئك وهؤلاء، بكل شجاعة وعبقرية واقتدار.[1]

ولقد صور المعري الغفران محتجا ساخرا إلى أقصى حدود السخرية، حيث نصب نفسه بكل اقتدار وإبداع قاضيا في الدار الآخرة في رسالة الغفران، فالمعري في هذه الرسالة قد صور كل ما حرم منه في حياته في سخرية شديدة حيث عرض لنا مشاهد اللذائذ والمتع واللحوم والخمور مصورة ، وحيث عرض لنا مشاهد الأحلام التي صنفتها سياط الغربة والحرمان، كما صور لنا جنة السجين المكبوت في حركات الصيد والغناء و الرقص والدعابة والصياح ومشاهد الإنفعالات من تعجب وحنين والذي لا شك أن الرحمة التي دعا إليها هي السبب في تصويره العذاب والنعيم، في صورة بسيطة للغاية ويظهر ذلك من خلال إدخاله النار أمثال بشار بن برد وإدخاله الجنة من أهل الفترة السابقة للإسلام وهي الفترة الجاهلية من أمثال النابغة الذبياني وزهير بن أبي سلمى، فقد انتقم المعري من بشار بن برد وأدخله في رسالة الغفران قاع الجحيم إذ أنه كان أسبق وأسرع إلى الشهوات.[2]

وفيما بعد سوف نقوم بوصف رحلته في العالم الآخر في الجنة والنعيم ونتعرف على بعض الشعراء والأدباء الذين سواءا كانوا من أهل الجنة أو النار.

1- رحلته في الجنة:

[1] - عبد القادر محمود، رحلة إلى الدار الآخرة مع دانتي والمعري، ص32.
[2] - م ، ن،ص34.

لقد أخذ" أبو العلاء" مادته التي صنع منها جنته في رسالة الغفران من القرآن الكريم والصور الإسلامية للجنة وإذا وقفنا أمام ساحات الديانات السماوية الكبرى وجدنا في اليهودية مشاهد الدار الآخرة مع أرض الظلام والعذاب وجنات النعيم وفي المسيحية نشاهد معارج القديسين، ثم نرى في القرآن الكريم صور ومشاهد رائعة لأولئك المقربين في جنات النعيم « على سرر موضونة * متكئين عليها منقلبين *يطوف عليهم ولدان مخلدون* بأكواب وأباريق وكأس من معين* لا يصدعون عنها ولا ينزفون*وفاكهة مما يتخيرون* ولحم طير مما يشتهون* وحور عين *كأمثال اللؤلؤ المكنون *جزاءا بما كانوا يعملون». [1]

«في سدر مخضود *وطلح منضود *وظل ممدود* وماء مسكوب *وفاكهة كثيرة* لا مقطوعة ولا ممنوعة* وفرش مرفوعة» [2]

كما أخذ أيضا مادته من الشعر الجاهلي، ومن الأساطير التي عرفها العرب وربما يخيل للرائي المتعجل أن "أبا العلاء" جمع مادته من هذه المصادر، ثم عكف على تنسيقها وإبراز بعض عناصرها أو إضافة لون إليها، فالواقع أنه وإن التمس مادته من المصادر التي أشرنا إليها فقد صاغ هذه المادة صياغة فريدة لها طابعها المتميز، وأفرغها في القالب الذي اختاره أو اختارته له ظروفه الخاصة بكل ما يفردها ويميزها عن سواها، ولو أن جنة الغفران كانت نسخة جامعة لصور الجنة ،لما كان لها في تراثنا الأدبي هذا المكان المرموق وإنما هي جنة علائية، خالصة متميزة، يستطيع المتأمل أن يرى فيها شخص صانعها.[3]

ولقد وصف لنا أبو العلاء المعري الجنة التي افترضها في العالم الآخر وصفا يشوق النفوس إليها حيث مضى يعرض لنا مسارح الجنة وأنهار خمرها وعسلها المصفى في كؤوس من فضة وذهب وما يرون فيها من أسراب إوز الجنة العجب العجاب، حيث ينتفضن على الأمواج فيصرن كوائب حسانا بأيديهن المزامر وآلات الطرب، ويدور الحوار والغناء وحيث تقام المآدب التي ينعم بأطعمتها وأشربتها كل من في الجنة من الشعراء والأدباء، وما فيها من

[1] - الآيات (15-24) من سورة الواقعة.
[2] - الآيات (27- 34) من سورة الواقعة.
[3] - عائشة عبد الرحمان، رسالة الغفران لأبي العلاء المعري، ط 3 دار المعارف بمصر سنة 1979.

مشاهير المغنيين والمغنيات وحيث يشهدون من بدائع الجنة أشجار الحور، التي ما إن تكسر إحدى ثمارها حتى تنطلق منها حورية ليس لجمالها مثال.[1]

وربما أول ما يلفت النظر في جنة الغفران براءتها من الفراغ والسكون وخلوها من التعطل والجمود، فهي حافلة بالحركة والحياة، غنية بالعواطف الإنسانية، زاخرة بالإنفعالات النفسية العنيفة الحادة.[2]

فأبو العلاء يعقد في جنته مناقشات وحوارات مع الشعراء والأدباء.

1-1- الشعراء:

ومن الذين ذكرهم "أبو العلاء" في رسالة الغفران وكانوا من أهل الجنان نذكر " الأعشى" وهو ميمون بن قيس بن جندب البكري، أبو بصير من شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية، أدرك الإسلام ورحل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فردته قريش.[3]

وكذلك "النابغة الجعدي" وهو أبو ليلى، قيس بن عبد الله، من جعدة بن كعب بن ربيعة العامري شاعر مقدم، لقي الرسول صلى الله عليه وسلم فأنشده فدعى له وقد عمر طويلا.[4]

ثم تقوم مناظرة بين الأعشى والنابغة الجعدي.

بعاصي العواذل طلق اليدين يعطي الجزيل ، و يرخي الإزارا

فما نطق الديك حتى ملأ ت كوب « الرباب»له فاستدارا

إذا انكب أزهر بين السقاة تراموا به غربا أو نضارا

فيقول "أبو بصير":قد طال عمرك يا أبا ليلى،وأحسبك اصابك الفند ،فبقيت على فندك إلى اليوم أما

[1] - عبد القادر، محمود، رحلته إلى الدار الآخرة مع المعري ودانتي،ص 55- 56.
[2] - عائشة، عبد الرحمان، الغفران لأبي العلاء المعري، دراسة نقدية ص 113.
[3] - ابن سلام،الجمحي،طبقات فحول الشعراء ط1، ص10.
[4] - م ن،ص28

علمت أن اللواتي يسمين بالرباب ، أكثر من أن يحصين ؟أفتظن أن "الرباب " هذه هي التي ذكرها القائل ؟

مابال قومك يا رباب خزرا كأنهم غضاب

غاروا عليك ، وكيف ذا ك، ودونل الخرق اليباب ؟

أو التي ذكرها " امرؤ القيس" في قوله؟ :

دار لهند ، و الرباب ، وفرتني وليس، قبل حوادث الأيام

ولعل أمها "أم الرباب" المذكورة في قوله "وجارتها أم الرباب بمسأل " فيقول " نابغة بني جعدة " أتكلمني بمثل هذا الكلام ياخليعة بني ضبيعة وقد مت كافرا ، وأقررت على نفسك بالفاحشة ، وأنا لقيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فأنشدته كلمتي التي أقول فيها :

بلغنا السماء مجدنا وسهاءنا وإنا لنبغي فوق ذلك مظهرا

فقال : إلى أين يا أبا ليلى ؟ فقلت : إلى الجنة بك يا رسول الله . فقال: لا يفضض الله فاك .

أغرك أن عدك بعض الجهال رابع الشعراء الأربعة ؟ وكذب مفضلك ، وإني لأطول منك نفسا ، و أكثر تصرفا ولقد بلغت بعدد البيوت ما لم يبلغه أحد من العرب قبلي ، وأنت لاه بعقارتك تفتري على كرائم قومك . وإن صدقت ، فخزيا لك ولمقارك.[1]

فيغضب "أبو بصير"فيقول:اتقول هذا وإن بيتا مما بنيت ليعذل بمائة من بنائك ؟وإن أسهبت في منطقك ،فإن المسهب كحاطب الليل ، وإن لفي الجرثومة من"ربيعة الفرس" وإنك لمن "بني جعدة "وهل جعدة إلا رائدة ظليم أزكى تفور؟أتعيرني مدح الملوك ؟ولو قدرت يا جاهل على ذلك ، لهجرت غليه أهلك وولدك ،ولكنك خلقت جبانا هدانا،لاتدلج في الظلماء الداجية،ولاتهجر في الوديقة الصاخدة .وذكرت لي طلاق "الهزانية" ولعلها بانت عني مسرة الكمد ،والطلاق ليس بمنكر. للسوق ولا للملوك.

[1] - المرجع السابق، ص 227-229.

فيقول "الجعدي": اسكت يا ضل بن ضل،فأقسم ان دخولك الجنة من المنكرات،ولكن الأقضية جرت كما شاء الله .لحقك أن تكون في الدار الأسفل من النار،ولقد صلي بها من هو خير منك،ولو جاز الغلط على رب العزة ،لقلت ،إنه غلط بك ألست القائل:

فدخلت إذ نام الرقيـ ب فبت دون ثيابها

حتى إذا ما استرسلت للنوم بعد لعابها.[1]

ونجد كذلك "حسان بن ثابت": وهو بن المنذر الانصاري ، ويكنى أبا الوليد ،وأبا عبد الرحمان.وهو ابنه من سيرين أخت مارية القبطية .الشاعر المخضرم المشهور، وكان شاعر الرسول إلا أنه لم يشهد معه مشهدا.

وقد عمر حتى مات في خلافة معاوية .[2]

ويمر "حسان بن ثابت" فيقولون :أهلا أهلا أبا عبد الرحمان ،ألا تحدث معنا ساعة ؟ فإذا جلس عليهم قالوا : أين هذه المشروبة من سبيئتك التي ذكرتها في قولك:

كأن سبيئة منبيت راس يكون مزاجها عسل وماء

على أنيابها،أو طعم غض من التفاح هصره اجتناء

ويحك ؟أما استحييت أن تذكر مثل هذا في مدحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فيقول : إنه كان أسجح خلقا مما تظنون ، ولم اقل إلا خيرا ن لم أذكر اني شربت خمرا ، ولا ركبت مما حظر أمرا ،وإنما وصفت ريق امرأة ، يجوز أن يكون حلا لي ،ويمكن أن أقوله على الظن ، وقد شفع صلى الله عليه وسلم في أبي بصير.

بعد ما تهكم في مواطن كثيرة نوزعم أنه مستر ، مفتر أو ليس بمفتر . وماسمع باكرم منه صلى الله عليه وسلم :لقد أفكت "فجلدني مع" "مسطح" ثم وهب لي "أخت مارية"فولدت لي "عبد الرحمان" وهي خالة ولده "إبراهيم"[3]

[1] - المرجع السابق،ص229-230

[2] -أبو فرج، الأصفهاني، الأغاني،ص128.

[3] -أبو العلاء،المعري،رسالة الغفران، دار صادر،د/ت،ص134

وهو- زين الله الآداب ببقائه –يخطر في ضميره أشياء ، يريد أن يذكرها لـ"حسان" وغيره ، ثم يخاف أن يكونوا لما طلب غير محسنين فيضرب عنها إكراما للجليس: مثل قول "حسان": *يكون مزاجها عسل وماء*

يعرض له أن يقول: كيف قلت يا أبا عبد الرحمان : أيكون مزاجها عسل وماء ،أم مزاججها عسلا وماء ، أم مزاجها عسل وماء ، على الإبتداء والخبر ؟

وقوله:

فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره ، سواء

يذهب بعضهم إلى أن"من" محذوفة من قولك : ويمدحه وينصره على أن ما بعدها صلة لها .وقال قوم ، حذفت على أنها نكرة ، وجعل[1] ما بعدها وصف لها، فأقيمتالصفة مقام الموصوف .

ويقول قائل من القوم :كيف جبنك يا أبا عبد الرحمان ؟

فيقول ك ألى يقال هذا قومي أشجع من العرب ؟

أراد ستة منهم أن يميلوا على أهل الموسم بأسيافهم ، وأجاروا النبي صلى الله عليه وسلم علر أن يحاربوا معه كل عنود،فرمتهم ربيعة ومضر وجميع عن قوس العداوة ، وأضمروا لهم ضغن الشنان ،وإن ظهر مني تخرز في بعض المواطن ، فإنما ذلك على طريقة الحزم كما جاء في الكتاب الكريم " ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من اللهومأواه جهنم وبئس المصير ".[2]

وقد يلفت النظر هنا أن "أبا العلاء"يحب أن تكون في جنته ملامح من دنيانا المألوفة .ومن ذلك ما تراه فيها من لافتات القصور،ووجود أحياء بالجنة على النحو الذي عرفناه في هذه الدنيا وذلك ما نجده عند "زهير بن أبي سلمى المزني"و"عبيد بن الابرص الأسدي" .فزهير بن أبي سلمى المزني نسبه في غطفان،ورث الشعرعن خاله "بشامةبن الغدير".وكان زهير راوية "أوس بن حجر" ،ثم قال الشعر فوثب إلى الطبقة الأولى من فحول الشعراء

[1] - أبو العلاء المعري.رسالة الغفران،ص234-236.
[2]- الآية 16 من سورة الأنفال.

الجاهليين،أما عبيد بن الأبرص من بني أسد بن خزيمةبن مدركة ، الشاعرالجاهلي المشهور،عمر طويلا حتى قتله المندر بن ماء السماء.[1]

وينتظر الشيخ في رياض الجنة فيرى قصرين عظيمين أحدهما لزهير بن أبي سلمى والآخر لعبيد ، ويلتمس لقاء الرجلين ويسأل زهيرا : "بم غفر لك؟ " فيخبره أن نفسه كانت من الباطل نفورا " ، فصادفتملكا غفورا وإنه كان يؤمن بالله العظيم ثم يلتقي عبيدا فيدرك السؤال الذي في نفسه فيبتدره عبيد الملك تريد ان تسالني: بم غفر لي؟ لقد شملتني الرحمة بسبب بيت قلته. [2]

ومن ذلك أيضا ماتراه عند"ابي العلاء"من ميل واضح إلى أن يتمتع أهل جنته بما ألفره أو اشتاقوه في دنياهم:"فعدي بن زيد" هو بن حمادالعبادي.من بني زيد مناة بن تميم . الشاعر الجاهلي النصراني المشهور .كان يسكن الحيرة ويدخل الأرياف ، فلان لسانه وسهل منطقه[3].

"فعدي بن زيد" يسأل عن شعره فيجيب:"دعني من هذه الأباطيل،ولكني كنت في الدارالفانية صاحب قنص...."

وكذلك قوله:"فهل لك أن نركب فرسين من خيل الجنة فنبعثهما على صيرانها،وخيطان نعامها،وأسراب ظبائها،وعانات حمرها،فإن للقنيص لذة قد(تنفضت)لك بها؟فيقول الشيخ إنما أنا صاحب قلم وسلم، ولم أكن صاحب خيل،ولاممن يسحب طويل الذيل،وزرتك إلى منزلك مهنئا بسلامتك من الجحيم، وتنعمك بعفو الرحيم،ومايؤمنني إذا ركبت طرفا زعلا،رتع في رياض الجنة فاض من الأشر مستسعلا ، وأنا كما قال القائل:

لم يركبوا الخيل إلا بعدما كبروا فهم ثقال على أكتافها عنف

وقوله أيضا: وإني لأحار يا معشر العرب في هذه الاوزان التي نقلها عنكم لبثقات وتداولتها الطبقات، ومن كلمتك التي على الراء،وأولها:

[1]- ابن سلام الجمحي،طبقات فحول الشعراء.ص31
[2] - الخلادي.الدراسات الأدبية،رسالة الغفران.ص45.
[3] - أبي فرج الأصفهاني،الأغاني،ص97

قد آن أن تصحوا أو تقصر وقد أتى لما عهدت عصر.

عن مبرقات بالبرين،وتبـ دو بالأكف اللامعات سور.[1]

وكذلك تحدث"أبو العلاء المعري" في رسالته عن"أبي ذؤيب الهذلي"وناقته فهو خويلد بن خالد من بني تميم بن سعد بن هديل،شاعرمخضرم فحل،يعده"ابن سلام في الطبقة الثالثة مع النابغة الجعدي والشماخ ولبيد،خرج مع "عبد الله بن الزبير"في غزى له نحو المغرب فمات .[2]

"فأبو ذؤيب" لا يمنعه وجود أنهار من لبن في الجنة،منأن يشتهي أن يحلب ناقته،فيكون له ما اشتهى وأراد ويقوم فيحتلب على العادة ويحن يحب الشيخ أن يصنع مأدبة في الجنة"يخطر له أن تكون كمأدبة الدار العاجلة.

وهو يأبى أن يجيء الطعام لضيوفه جاهزا،ويختار أن تنشأ ارحاء على الكوثر لطحن البر "فإذا اجتمع من الطحن ما يظن أنه كاف للمأدبة،تفرق خدمه من الولدان المخلدين، فجاؤا بالبقر والغنم والطيور لتعتبط،ثم قال أحضروا من في الجنة من الطهاة الساكنين بحلب على ممر الأزمان".

وأنظر إليه كيف يؤثر ماكان يراه في الدنيا على ما يتاح له في الجنة؟يخطر له ذكر شراب الفقاع الذي كان يعمل في الدار الخادعة،"فيجري الله بقدرته أنهارا من فقاع، الجرعة منها لو عدلت بلذات الفانية منذ خلق الله السماوات والارض إلى يوم تطوى الأمم الآخرة،نحو ما كنت أراه مع الطوافين في الدار الذاهبة، فلا تكمل هذه المقالة حتى يجمع الله كل فقاع من أهل العراق والشام وغيرهما من البلاد، بين أيديهم الولدان المخلدون يحملون السلال إلى أهل ذلك المجلس.

وللدراسة النفسية مجالها هنا تقف عند لفظ (العادة) الذي يكرره.[3] "أبو العلاء"وتفسر لنا لم أثر هؤلاء متع دنياهم ومألوف لداتهم، على ما كان بمنالهم من لذائذ الخلود.

[1] - أبو العلاء المعري ،رسالة الغفران، ص191

[2] - ابن سلام الجمحي،طبقات فحول الشعراءص26

[3] - عائشة عبد الرحمان،الغفران لأبي العلاء المعري دراسة نقدية،ص123.

ولا يحتاج أحدهم إلى أن يعبر عما يشتهي ويطلب ما يشتاق، بل يكفي كما ترى في رسالة الغفران أن تخطر له الخاطرة،أو يهجس فيه الشوق، حتى يجد ما يريد ماثلا بين يديه "فعز إلهنا القديم الذي لا يعجزه تصوير الأماني، وتكوين الهواجس من الظنون ".[1]

1-2-الأدباء:

"أبو العلاء" في رحلته الطويلة بالجنة لم يلق من الأدباء والشعراء واللغويين سوى رجل واحد هو آدم عليه السلام.تلقاه في زاوية بعيدة في الطريق بين النار والجنة،ولعله كان يلقي نظرة على العذبين من أبنائه.وإنما جيء "بآدم "هنا ليحكم في قضيتين من القضايا الأدبية التي شغلت النقاد زمانا،ولاتزال تشغلهم حتى اليوم .واعني بهما قضيتي الانتحال ،ولغة أهل الجنة،على ما نعرض له بعد الحديث عن المسائل الأدبية في "الغفران "

وأختار "أبو العلاء " للمنتدمة في الفردوس : ثعلبا،وابن دريد،ويونس ابن حبيب الضبي،وابن مسعدة المجاشعي،والمبرد،وسيبويه،والكسائي،وأبو عبيدة،والخليل بن أحمد.

وقد عقد"أبو العلاء"في الجنة مجالس أدبية حافلة،أثار فيها طائفة من المسائل اللغوية والقضايا الادبية وحقق بعض المسائل الهامة من تاريخ الأدب واستنشد الشعراء ما أحب من روائع قصائدهم وسأل اللغويين عما أراد،ممانفصله في مكانه .

ولم يشأ"أبو العلاء"أن تحول رهبة الحشر دون عقد أحد هذه المجالس،حين يلقى ابن القارح "في المحشر شيخا لنا كان يدرس النحو في الدار العاجلة يعرف بأبي علي الفارسي،وقد امترس به قوم يطالبونه ويقلون:تأولت علينا وظلمتنا.فلما رآني أشار إلي بيده فجئته،فإذا عنده طبقة منهم"يزيد بن الحكم الكلابي"وهو يقول:ويحك؟أنشدت عني هذا البيت برفع الماءنيعني قوله:

فليت كفافا كان شرك كله وخيرك عني ما ارتوى الماء مرتوي.[2]

[1] -المرجع السابق،ص223

[2] -المرجع نفسه ص129.

2- رحلته في جحيم الغفران:

إن المتمعن في رحلة أبي العلاء في الجحيم الذي تصوره في رسالة الغفران يرى وبوضوح مدى تأثره في هذا التصور للعالم الآخر بالصورة الإسلامية والشعر القديم وحتى الأساطير،فيبرز تأثره واضحا من خلال استعماله ألفاظ وصور موجودة في القرآن الكريم ومنها:تسميته لدار العذاب في العالم الآخر بأسماء،وردت كلها في القرآن الكريم وهي النار والجحيم وجهنم وسقر.

كما استعمل في جحيمه ألفاظ قرآنية هي: الزبانية، الأغلال،السلاسل،السعيروغيرها.....

ومن المشاهد التي تبرز تأثر أبو العلاء الواضح بالقرآن ذلك المشهد في وصف الجحيم وهو إذ يحاور إبليس ويخاطب أهل النار ويناقشهم[1]. ويذكر " الأخطل" وهو غياث بن غوث بن التغلبي ويكنى أبا مالك شاعر مقدم، وهو أحد الثلاثة إنتهى إليه الشعر في العصر الإسلامي[2]، بخطيئاته لا يبتعد عما في القرآن حيث أهل الجنة وأهل النار يتخاطبون، فهو مأخوذ من القرآن من قوله تعالى« يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا أنظرونا نقتبس من نوركم قيل إرجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب، ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور. فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبيس المصير[3]» .

كما سيستعير "أبو العلاء" صورا من الشعر القديم، ويمثلها في جحيمه شخصية.

فيمضي« فإذا هو بامرأة في أقصى الجنة، قريبةمن المطلع إلى النار، فيقول: من أنت؟ فتقول: أنا الخنساء السلمية. أحببت أن أنظر إلى صخر-ولد عمر بن الحارث بن الشريد السلمي ،أخوه معاوية وأخته تماضر الخنساء صاحبة المراثي المشهور. فرأيته كالجبل الشامخ،والنار تضطلم في رأسه.فقال لي:لقد صح مزعمك في، يعني قوله:

وإن"صخرا"لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار .

[1] -أبو العلاء،المعري،رسالة الغفران،ص271
[2] - ابن سلام الجمحي،طبقات فحول الشعراء،ص105
[3] - الآيات من13-15من سورة الحديد

وينظر فإذا عنترة بن شداد العبسي–عنترة بن شداد العبسي أحد فرسان الجاهلية وأحد أعزبتها المشهورين وشعرائها الأعلام،وأمه أمة سوداء–متلدد في السعير،فيقول:مالك أخا عبس؟كأنك لم تنطق بقولك :

ولقد شربت من المدامة بعدما ركد الهواجر ،بالمشرق المعلم.

بزجاجة صفراء ذات أسرة فزنت بأشهر في الشمال مقدم.[1]

وسأل عن الشنفري الأزدي"فألفاه قليل التشكي والتألم لما هو فيه فيقول:إني لأراك قلقا مثل قلق أصحابك فيقول:أجل، إني قلت بيتا في الدار الخادعة فأنا أتأدب به حيرى الدهر،وذلك قولي:

غوى فغوت،ثم ارعوى بعد وارعوت وللصبر إن لم ينفع الشكو أجمل.[2]

وإذا كان أبو العلاء كما قلنا قد استقى مادة الجحيم في الغفران من القرآن الكريم الشعر القديم،فإن أبا العلاءصاغها علىطريقته،فجاءت معبرة عن عالمه النفسي بكل ما يصطرب فبه منهواجس وهموم ومخاوف جاءت تحمل طابعه الخاص.

وأول ما يلفت فيها،أن الطابعه الانساني قد غلب عليها ووسمها بسمة ينذر أن تراها في صورة أخرى للجحيم.

فأبو العلاء يقتصد في تصوير العذاب إلى حد لا نعرف له مثيلا فيما بين أيدينا من صور الجحيم،ولقد رأيناه يستحضر آيات النعيم في القرآن،ويستعير صور اللذة من شعر الأقدمين،ثم يجرى خياله فيها ملأ عنانه ويمضي في رحلته بالفردوس إلى أبعد ما يناله الوهم،وأقصى ما يدركه الخيال.[3]

فإذا مضى بابن القارح في الرحلة إلى الجحيم،رأيناه يوجز في وصف مشاهد العذاب ويكتفي منها بقدر قليل لا يمثل ذلك الهول الأكبر الذي وصف لنا في غير "الغفران".

ومشاهد العذاب في الغفران معدودة محدودة،لايكاد أطول مشهد فيها يتجاوز الأسطر المعدودات إذا استثنينا مشهد عذاب الحشر،الذي اختار له أبو العلاء الشوسالجبابرة من الملوك،والنسوة ذات التيجان،والشباب من أولاد

[1]- أبو العلاء،المعري،رسالة الغفران،ص275

[2] - عائشة ،عبد الرحمان،رسالة الغفران لأبي العلاء-دراسة نقدية-ص248.

[3] -المرجع نفسه،ص149

الأكاسرة،صدبلسخط "أبي العلاء"على فسادها،وقبح رأيه في الحكام وقد ختم المشهد القاسي بقوله:"فهتف داع من قبل العرش :"أولم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير،فما للظالمين من نصير"[1].

لقد جاءتكم الرسل في زمان بعد زمان،وبذلت لكم ما ولد الإيمان وقيل لكم في الكتاب"واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون".[2]

ثم انتقل أبو العلاء إلى أقسى صورة رسمها للعذاب في جحيمه،فذلك قوله:"فيطلع فيرى ابليس لعنة الله وهو يصطرب في الأغلال والسلاسل،ومقامع الحديد تأخذه من أيدي الزبانية".

فلا يسكت من كلامه إلا ورجل من أصناف العذاب يغمض عينيه حتى لا ينظر إلى ما نزل به من نقم،فيفتحها الزبانية بكلاليب من نار،وإذا هو "بشار بن برد"-ولد أعمى وكان ضخما،مجدورا،جاحظ المقلتين يغشاهما لحم أحمر،كان بصوب رأي ابليس في امتناعه للسجود لآدم-.[3]

ثم مشهد آخر امتحن به شاعر من أحب الشعراء إلى أبي العلاءوهو"أوس ابن حجر"-كان فحل مضر حتى نشأ"النابغة وزهير"،فأخملاه،وكان من أوصف الشعراء للقوس[4]-لكننا سنرى أنه ألقى إلينا قصة هذا العذاب في صيحة شكوى أليمة مريرة،حيث يجيب"أوس"عن سؤال "ابن القارح" في أبيات رويت لاوس وللنابغة"لقد بلغني أن نابغة بني ذبيان في الجنة فاسأله عما بدا لك،فلعله يخبرك فإنه أجدر بأن يعي هذه الأشياء،فأما أنا فقد ذهلت نار توقد،وبنان يعقد،إذا غلب علي الظمأ رفع ليشيء كالنهر،فإذا اقتربت منه لأشرب وجدته سعيرا مضطرما،ولقد دخل الجنة وهو أشر مني لكن المغفرة أرزاق كأنها النشب في الدار العاجلة[5].

[1] - الآية 37 من سورة فاطر.
[2] - الآية 281 من سورة البقرة.
[3] - إبن قتيبة،الشعر والشعراء،ط1،دار الكتب العلمية،بيروت لبنان،1981م،ص48
[4] -المرجع نفسه،ص49.
[5] - أبو العلاء، المعري،رسالة الغفران ص341

هذه هي أقسى مشاهد العذاب التي عرضها "أبو العلاء"في جحيمه ،وقد رأينا أنه اختار لأولها الجبابرة ومن اليهم،وللثاني ابليس أما الثالث فلم يكن سوى صرخة شكوى ومهما تبلغ في قوتها فإنها لن تصل إلى قريب مشاهد الهول في العالم الآخر،كما سمعنا بها أو قرأناها في غير الغفران.[1]

بالإضافة إلى هذه المشاهد،نرى"أبا العلاء"يوجز في وصف العذاب ويلجم خياله عن المضي في تصويره وتشخيصه،فهو أحيانا يقدم لنا الشعراء في جهنم بعبارات تصف عذابهم وصفا سريعا موجزا:

فعلقمة بن عبدة–شاعر جاهل من بني تميم يقال له علقمة الفحل وهو الذي احتكم مع امرئ القيس إلى أم جندب فحكمت لعلقمة[2]–صوره وهو عابس يستضحك فيقول علقمة إنك عابس لتستضحك عابسا وتريد أن تحني التمر يابسا،فعليك شغلك أيها السليم.

كما يصور لنا عنترة العبسي متلددا في السعير،وطرفة يشتهي الهدوء والسكون—طرفة البكري من بني مالك،شاعر جاهلي نبغ في الشعر وهو صغير وعاجلته الموت وهو في صدر شبابه ويعد من أجود الشعراء–.

وأبو كبر الهدلي–شاعر جاهلي رثيت له أربع قصائدوالقصائد ذكر أبو العلاء مطلعها في رسالته[3]–الذي ذكره يقول:"وإنماكلام سقر ويل وعويل"الأخطل النغلي يتضور،وإن يكن له من خلو البال ماجعله يحن لأيام"يزيد"ويروي لابن القارح ذكرياته معه.

ولن يفوتنا هنا أن نلحظ أن "أبا العلاء "يقدم لنا عددا من شعراء الجحيمدون أن يشير بكلمة واحدة إلى عذابهم،كما فعل مع امرؤ القيسوالحارث اليشكري،ومهلهل،عدي بن ربيعة،ويقدم الشنفري الأزدي محتملا للعذاب في الجحيم"قليل التشكي والتألم لما هو فيه".

إن هذه الصور التي صورها أبو العلاء في الغفران هي صور بسيطة بالمقارنة مع صور أخرى نراها في كتب أخرى وفي تصور شعوب أخرى .بل هي بعيدة أيضا عما صوره القرآن الكريم في الجحيم وعن عذاب الكفار والمنافقين

[1] - عائشة ،عبد الرحمان،رسالة الغفران دراسة نقدية،ص138

[2] - ابن سلام، الجمحي،طبقات فحول الشعراء-ص152.

[3] - المرجع نفسه،ص160.

والكاذبين وغيرهم،ويظهر هذا جليا إذا قارناه بآيات قرآنية،فحينها نرى أن مناظر جحيم أبو العلاء تبدو مناظر باهتة ضئيلة،بجانب الآيات القرآنية في الجحيم،وإن كان-كما قلنا-قد استعار كثيرا من ألفاظها ونقل بعض مشاهدها.[1]

ومن الآيات التي تصور لنا الجحيم في القرآن الكريم قوله تعالى:« إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور،تكاد تميز من الغيظ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير » .[2]

وغيرها كثير،إن آية واحدة من آيات القرآن،تفوق جحيم الغفران قوة وهولا وشدة عذاب.

فأبو العلاء أوجز في وصف عذاب الجحيم ولم يجر في تصويره على أسلوبه من المبالغة والغلو،فنتحدث هنا عن الطابع الإنساني في جحيم الغفران،فأبو العلاء أبقى على بشرية المعذبين من أصحاب النار. فهو يأبى أن يجردهم منها أو يجعل العذاب يخرجهم من عاداتهم المألوفة.فيصور لنا الشنفريالأزدي"قرين"مع تأبط شرا كما كان في الدار الغرارة،والاخطل يحن لأيام"يزيد"ويرون من كفرياته وذكرياته،ما يقول معه ابن القارح"عليك البهلة!وقد ذهلت الشعراء من أهل الجنة والنار عن المدح والنسيب،وما شدت من كفرك ولا إساءتك".

كما يلقى تأبط شرا فيسأله:"أحق ما روي عنك من نكاح الغيلان"؟[3]

ويسمع حديث الأخطل ثم يلعنه ويتعرض لإبليس شامتا لاعنا.

ثم إذا سمع إبليس لعنة"ابن القارح" للأخطل أعزى به الزبانية قائلا في خبث شيطاني:"مارأيت أعجز منكم إخوان مالك ،فيقولون كيف زعمت ذلك يا أيامرة؟[1]فيقول:ألا تسمعون هذا المتكلم بما لايعنيه؟قد شغلكم وشغل غيركم

[1] - أبو العلاء، المعري،رسالة الغفران ص328
[2]- الآية7-8.من سورة الملك
[3] - عائشة ،عبد الرحمان،رسالة الغفران دراسة نقدية،ص139

عما هو فيه،فلو أن فيكم صاحب نحيزة قوية،لوثب وثبة حتى يلحق به فيجد به غلى سقر.فيقولون لم تصنع شيئا يا أبا زوبعة،ليس لنا على أهل الجنة سبيل.

ومن أهل النار من يزجر"بن القارح"وهو السعيد المغفور له،ويقول له في تأنيب وإنكار:

"إنك لقرير العين لا تشعر بما نحن فيه،فاشغل نفسك بتمجيد الله"

"فاذهب لطيتك،واحذر أن تشعل عن مطيتك"

"ألم تنهو عن الشمات يا بني آدم؟ولكنكم بحمد الله ما زجرتم عن شيء إلاركبتموه"

وإذا كان نعيم الجنة في الغفران لم يلغ بشرية أهلها،فكدلك ترى "أبا العلاء"لايهدر بشرية أصحاب النار ولايخلي جحيمه من الحقد والشتم والشماتة والتحريض والندم والشكوى والنسيان والإحتجاج المر الذي يقوى حتى يشبه أن يكون اعتراضا على قضاء الله،كهذا الذي سمعته من قول أوس:"ولقد دخل الجنة من هوأشر مني،ولكن المغفرة أرزاق كأنها النشب في الدار العاجلة".[2]

هذه جحيم بشر وهي أيضا:

جحيم الضرير:

يأبى هنا إلا أن يرد الأعمى بصيراولو أرته عيناه أهوال العذاب،فأول شاعر تلقاه في رحلة الجحيم"بشار بن برد".جاء به أبو العلاء في أول العرض مبصرامفتح العينين"قد أعطى عينين بعد الكمة،لينظر إلى ما نزل به من النكال".[3]

[1] -المرجع السابق، ص139.
[2] - المرجع نفسه،ص143
[3] -أبو العلاء، المعري،ص 310.

وهي صورة على قسوتها وبشاعتها،لا تخفى شخصية راسمها،وما أحسب أبا العلاء هنا قدغاب عنه قوله تعالى:« ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى،قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا [1].

لكن البشرية غلبته،فشق عليه أن يتصور عالمه الآخر بغير إبصار،ولو كان ذلك في أطباق الجحيم.

جحيم الأديب:

من أمنع المواقف في جحيم الغفران وأدلها على شخصية"أبي العلاء"تلك المشاهد الأدبية الحافلة التي عرضها في جحيمه ولن نلق فيها من غير الشعراء سوى إبليس،وشخصيته التي عرضه بها"أبو العلاء"هنا شخصية شرير أديب،قارئ رواية،يتلو آيات من القرآن الكريم،ويروي شعر بشار

على أنه لا يكاد يذكر"بشارا"حتى يبدأ موكب الشعراء فلا تعود ترى على المسرح غيرهم،اللهمإلا مايقتضيه الموقف من شخصيات أخرى كالزبانية.

وتصورجحيما فيها من الشعراء:بشار،امرؤ القيس،عنترة،علقمة الفحل،عمربن كلثوم،الحارث البشكري،طرفة، أوس بن حجر،أبو كبير الهدلي،صخر الغي،الأخطل،مهلهل،المرفشان،الشنفري وتأبط شرا.

تصور جحيما تجمع هؤلاء الشعراء جميعا وتصورخزنة النار وهم في خدمة الشيخ السعيد،يأتونه بمن يشاء من هؤلاء الشعراء واحدا بعد الآخر،ليحدثهم ويحاورهم:"يسأل عن امرئ القيس بن حجر،فيقال: هاهو ذا بحيث يسمعك".ويقول مافعل صخر الغي؟فيقال هاهو ذا"ويطلب مهلهلا[2]–مهلهل التغلبي وهوفال امرؤ القيس للشاعر،وجد عمرو بن كلثوم والمشهور أنه يسمى مهلهلا،لأنه أول من هلهل الشعر ورققه[3]–ويطلبه فيقول: ها

[1] -الآية
[2] -عائشة ،عبد الرحمان،رسالة الغفران دراسة نقدية،ص144
[3] - إبن سلام، الجمحي، طبقات فحول الشعراء،ص164.

هو ذا يسمع حوارك فقل"،ويقول:"فليت شعري ما فعل عمرو بن كلثوم؟فيقال هذا هو ذا من تحتك إن شئت أن تحاوره فحاوره".

ثم أذكر أن"أبا العلاء" يبقي لكثير منهم على أدبه وحفظه،ويدع لهم في هذه الجحيم،من الذاكرةوالجلد والوعي ، وما يستطيعون معه أن يناقشوا ويحاوروا ويجادلوا،ويدفعوا عن شعرهم عبث النقلة وأخطاء الرواة.

هذا"امرؤ القيس"- بن حجر الكندي،الأمير الشاعر المشهور، منشعراء الطبقة الأولى في الجاهلية[1]- يسأل عن رواية البغداديين لأبيات المعقلة"وكأن درا راس المجيم*وكان مكا كي الجواد*وكأن السباع فيه غرقى".وفي جحيم الغفران،من مثل هذا الحوار الأدبي الممتع كثير وقد يطول أحيانا حتى يصل إلى صفحات عديدة.

ونرى بين شعراء الجحيم من يلقي الراي ناقدا،فعنترة يسمع شعرا لأبي تمام فيقول:"أما الأصل فعربي،وأما الفرع فنطق به عينين وليس هذا المذهب على ما تعرف قبائل العرب".

وتأبط شرا: هو- ثابت بن جابر بن سفيان وهو الشاعر الجاهلي العداء وأحد الصعاليك المعروفين[2]-يسأل عما روي عنه من نكاح الغيلان فيقول:"لقد كنا في الجاهلية نتقول ونتخرص،فما جاءك عنامما ينكره المعقول فإنه من الأكاذيب، والزمن كله على سجية واحدة فالذي شاهده معه بن عدنان،كالذي شاهده نضاضة ولد آدم".

وقد يزهد بعض شعراءالجحيم في الحديث عن الشعر واللغة،لكنهلا يلبث أن يغضب لشعره فينبرى مدافعا عنه كما فعل:عمرو بن كلثوم:وهو بن مالك بن عتاب،سيد فارس فتاك،وشاعر مقدم من بني ثعلب-وقد اعتزت بمعلقته وعدتها من مفاخرها.[3]

حين سئل عن النساء في قوله:

كأن متونهن متون غدر تصفقها الرياح إذا جرينا.

[1]- م،ن.ص150.
[2] - إبن قتيبة، الشعر والشعراء، ص422.
[3] -إبن سلام،الجمحي،طبقات الشعراء،ص95

فيقول:" إنك لقرير العين لا تشعر بما نحن فيه،فاشغل نفسك بتمجيد الله واترك ماذهب فإنه لا يعود،وأما ذكرك سنادي فإن الاخوة ليكونون ثلاثة أو أربعة ويكون فيهم الأعرج والأبخق فلا يعابون بذلك ،فكيف إذا بلغوا المائة في العدد".

وإذا كان شعراء الجنة قد نسيوا شعرهم فإن شعراءهم لم ينسوا شعرهم،فـ"أبو العلاء"حريص على أن يبقي بشريتهم،بل لأن أكثر الناسين منهم يشتركون في الحوار بوعي وإدراك،ويلقون القول الفصل فيما يعرض لهم من القضايا الأدبية .

المرقش الأكبر:وهو" عمر بن سعد بن مالك، شاعر جاهلي من عشاق العرب المشهورين،أحب أسماء بنت عوف بن مالك"[1]،ذكره في أبيات رويت له وليست في ديوانه:

تخيرت من نعمان عود اركه لهند،ولكن من يبلغه هندا؟

"لقد قلت أشياء كثيرة منها ما نقل إليكم ومنها ما لم ينقل وقد يجوز أن أكون قلت هذه الأبيات ولكني سرقتها لطول الابد، ولعلك تنكر أنها في هند وأن صاحبتي"أسماء"فلا تنفر من ذلك فقد ينتقل المسبب من الإسم إلى الإسم، ويكون في بعض عمره مشتهرا بشخص من الناس"[2] .

[1] - ابن قتيبة،الشعر والشعراء،ص103 .
[2] - أبو العلاء ،المعري، رسالة الغفران ص329 .

المسائل و القضايا النقدية في رسالة الغفران:

في رسالة الغفران علم كثير بالشعر وروايته ونقده ومقابلاته وباللغة وكل ما يتصل بها،حيث تعد محاورات إبن القارح مع الشعراء والأدباء واللغويين التي تخيلها"المعري"في العالم الآخر مصدرا مهما من مصادر دراسة النقد الادبي القديم حيث حوت تلك المسامرات والمحاورات مباحث نقدية مهمة وأساسية في النقد الادبي .

لقد كان"المعري" مسرفا إسرافا متجاوزا في العملية اللغوية،والجري في مضامير الغريب كأنه يكتب لخاصته كما زعم الدكتور"طه حسين"أوأنه لم يشأ أن يطلع الناس دعامتهم على آرائه،ومنازع فكره، لكن هدا الغريب النادر أظهر لنا"أبا العلاء"واسع الاطلاع إلى حد لم تألفه عند سواه على الغريب النادرفي اللغة وأنه أحيا ألفاظا كانت مواتا،مستوفيا قواعد اللغة والشاذ فيها،متصرفا بالإشتقاق والتوليد حتى صح للعلامة"عبدالله العلايلي" يميزه بأنه صاحب فلسفة لغوية خاصة،مما أدى به إلى اعتبار الحروف كالأرقام ذات دلالات رمزية.[1]

وإذا كانت الثقافة العامة والذكاء والإحساس مما يشترط في الناقد الأدبي الموفق فإن"أبا العلاء"من أجدر الناس بمرتبة الصدارة في النقد فقد حباه الله ذكاءا عبقريا، واحساسا مرهفا واكسبه الاطلاع على فقه للغة نادرا ورواية للشعر بحرا، وإحاطة بالعلوم والفلسفة ذخرا فلاعجب أن نراه في"رسالة الغفران"ينتقد الشعر واللغة والصرف والنحو والعروض والرواية وغيرها،ويأتي في نقده بنظرة علمية موضوعية عمادها العقل والبرهان والذوق السليم.

ونقده الإجتماعي يأخذ من النقد الذاتي بأكثر مما يأخذ من النقد الموضوعي، لأنه نسيج فيه صلة فلسفية خلقها على عنكب المجتمع، لأن طبائع الناس وصفاتهم مازالت كما هي منذ كانت الدنيا.[2]

فقد تعرض أبو العلاء في رسالة الغفران إلى الكثير من القضايا الأدبية التي شغلت النقاد زمانيا وما يزال منها ما يشغلهم حتى اليوم: كمذهب أبي تمام، والرواية،والإستشهاد والإنتحال، وصناعة الأدب ولغة أهل الجنة، كما عرض مسائل مفردة تتصل بالأدب وتاريخه ونقده.[3]

---

[1] - نقلا عن الموسوعة العالمية العربية .
[2] -عبد القادر الخلاقي، عمر الدسوقي،محمد الصادق عفيفي،الدراسات الأدبية.ط5 ،ج2، دار الفكر 1970، ص49.
[3] - عائشة ، عبد الرحمان، الغفران لأبي العلاء المعري، دراسة نقدية، ط 3 ، دار المعارف بمصر.1968،ص 238.

ونبدأ بالحديث عن هذه المسائل التي ناقشها المعري في رسالة الغفران حيث نقتصر على عرض نماذج من " الغفران " دون أن نتناولها بالنقد أو الدرس، وقد تنقل بعض أقوال ذوي الرأي في هذه المسائل التي تعرضت لها الغفران وتدل على ما له فيها من رأي، إذ كان حظ المسائل الشعرية في رسالة الغفران غير قليل، ودليل ذلك أن المعري لم يقابل في زيارته للجحيم سوى الشعراء ولكي نقدر اهتمامه بدرس الشعر ونقده ولأبي العلاء غير هذه المحاورات مع الشعراء آراء وأقوال في الشعر نراها مبثوثة في كثير من مواضيع رسالة الغفران. ومن هذه الأقوال ما هو إلى النقد الأدبي أقرب. ولكننا سوف نأتي بأمثلة منه، تدل على مذهب "أبي العلاء" في الدرس الشعري وأسلوبه في عرض قضاياه وأحكامه.[4]

وما يهمنا نحن هو نقد أبي العلاء المعري "للغويين" و " الشعراء" الذين التقى بهم ابن القارح وناقشهم في الكثير من القضايا الأدبية واللغوية ومن خلال هذا نستطيع تحديد البعد النقدي في رسالة الغفران وسوف نتعرض إلى الكثير من القضايا والمسائل النقدية التي تعرض لها المعري في رسالة الغفران التي نستطيع من خلالها تحديد المنظور النقدي لأبي العلاء المعري.

1- نقد اللغويين:

في أول معرض للجنة يلقى "ابن القارح "جماعة من اللغويين، ويشاء أبو العلاء أن يجمع بينهم في إطار نقدي ساخر، وهؤلاء اللغويون هم "أخو ثمالة وأخو دوس وهما "ابن دريد" و " يونس بن حبيب الضبي" و ابن مسعدة المجاشعي وهو الأخفش الأوسط، وكان كل ما بين هؤلاء من المنازعات اللغوية والأحقاد الدفينة جراء ما قد زالت، بدليل الآية الكريمة " ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين".[5]

[4] -م ن ، ص194.
[5] - الآية 49 من سورة الحجر .

فصدر" أحمد بن يحي" هناك قد غسل من الحقد على " محمد بن يزيد" فصارا يتصافيان ويتوافيان، وأبو بشر عمرو بن عثمان قد رخصت سويداء قلبه من الضغن على" علي بن حمزة الكسائي" وأصحابه لما قفلوا في مجلس البرامكة، و"أبو عبيدة" صافي الطوبة . لعبد الملك بن قريب قد ارتفعت حلتهماعن الريب فهما كأربد ولبيد أخوان،أو ابني نويرة فيما سبق من الأوان،أو صخر ومعاوية ولدي عمرو.

"والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار".[6]

توجه أبو العلاء إلى المنحى اللغوي في نقده،تبدو للوهلة الأولى بأنها عابرة وغير مقصودة،وكان غرض المعري منها أن يستظهر الآيتين الكريمتين السابقتين في معرض نقدي فلم يجد أنسب من ذلك إلا جماعة اللغويين الذين جمعهم بدليل الآيتين، ولكننا حين نمضي معه في الرسالة نجد أيضا أن النقد اللغوي هو أيضا مقصود بالنقد،ومن جوانب عدة،وخص به كثيرا من المسائل منها الرواية ومنها ما هو خاص بمسائل النحو والصرف،ومن ناحية أخرى يخصص نقده لطائفة من الشعراء[7] نعرض وجوهه فيما يلي:

الرواية والرواة:

لأبي العلاء في رسالة الغفران عناية خاصة بالرواية واهتمام بنقدها،وحرص على سلامة المروى عن العرب من البحث والانتحال وأنت لا تكاد تبدأ الرحلة معه إلى الجنة،حتى يقدم إليك طريقته المختارة في الرواية والنقل.[8]

إذ ينتقد أبو العلاء في هذا المجال طائفة من اللغويين الذين تأولوا بعض الأبيات على الشعراءوحملوها على غير المحمل الذي أراده أصحابها،أما الرواة فكان يذكرهم أحيانا مشيرا إليهم من غير أن ينعتهم بأسمائهم،وهي قضية ذكرها ابن سلام وقد أشار إلى خطرها منذ القديم في كتابه طبقات فصول الشعراء حيث قال " وكان ممن هجن الشعر وأفسده وحمل على غثاء محمدبن إسحاق مولى آل مخرمة بن المطلب بن عبد مناف وكان من علماء الناس بالسير، فنقل الناس عنه الأشعار، وكان يعتذر منها ويقول لا علم لي بالشعر، إنما أوتى به فأحمله ولم يكن ذلك

---

[6]- الآية 23 من سورة الرعد .

[7] - منير، بن ذيب، الظاهرة الأسكتولوجية من خلال رسالة الغفران لأبي العلاء المعري. والكوميديا الإلاهية لدانتي، جامعة منتوري قسنطينة،دفعة الأدب القديم سنة 2005،ص242.

[8] -عائشة، عبد الرحمان ،رسالة الغفران ، دراسة نقدية ،ص 195.

عذرا[9] ومن ذلك مما ورد في الغفران ما جاء في لقائه ومناقشته مع "امرئ القيس" الشاعر الجاهلي الذي أدخله "أبو العلاء" الجحيم في رسالته، حيث سئل ابن القارح عنه فأجيب: هاهو حيث يسمعك، فيقول : " يا أبا هند إن روات البغداديين ينشدون في"قفانبك" هذه الأبيات بزيادة الواو في أولها، أعني قولك:

وكأن ذرى رأس المجير غدوة

وكأن مكاكي الجواء

وكأن السباع فيه غرقى.

فيقول: أبعد الله أولئك، لقد أساء و الرواية، وإذ فعلوا ذلك فأي فرق يقع بين النظم والنثر وإنما ذلك شيء فعله من لا غريزة له في وزن القريض . فظنه المتأخرون أصلا في المنظوم وهيهات هيهات.[10]

فقال " أبو العلاء" الروات البغداديين: من غير أن يذكر ولو واحدا منهم واكتفى بنعتهم بالمتأخرين وهي إشارة هامة في تفصيل " أبي العلاء " بين الشعر والنثر بميزاته الخاصة ويصفهم أحيانا بالتقاة كما حدث مع حديثه مع "عدي بن زيد" القائل: وإني لا أحار يا معشر العرب في هذه الأوزان التي نقلها عنكم التقاة وتداولتها الطبقات[11]

وقال لـ "الحارث البشكري" لقد أتعبت الرواة في قولك:

زعموا أن كل من ضرب العير موال لنا وأنا الولاء.[12]

ومن المسائل النقدية الكبرى في النقد العربي القديم قضية :

"الانتحال":وهي أن ينسب شعرإلى غير قائله،وقد طرق أبو العلاء إلى هذا حيث نسب بيت الى امرئ القيس ولم يذكر من نسبه أبيه من خلال قوله:"وإنا لنروي لك بيتا ما هو في كل الروايات وأظنه مصنوعا لأنه فيه ما لم تجر عادتك بمثله،وهو قولك:

وعمرو بن درماء الهمام ذا غدا بصارمة يمشي كمشية قسورا

[9] - ابن سلام، الجمحي، طبقات الشعراء،ص98

[10] -أبو العلاء المعري، رسالة الغفران، ص162-163.

[11] - م ن،ص62-63.

[12] - م ن، ص181.

فيقول :أبعد الله الآخر،لقد اخترص فما اترص.وإن نسبة مثل هذا إلي لأعده إحدى الوصمات،فما كان من فعله جاهلبا فهو من الذين وجدوا في النار صليا،وإن كان من اهل الإيلام فقط جنط في ظلام.[13]

وقد تطرق ابن سلام إلى قضية "الانتحال"من خلال ما ذكره حماد الروايةحيث قال:"وكان أول من جمع أشعار العرب ،وساق أحاديثها حماد الرواية،وكان غير موثوق به،كان ينحل شعر الرجل غيره،ويزيد في الأشعار،أخبرني أبو عبيدة عن يونس قال قدم حماد البصرة على بلال بن بردة،فقال ماأطرفتني شيئا،فعاد إليه فأنشده القصيدة التي في شعر"الخطيئة"مديح أبي موسى،فقال ويحك يمدح الخطيئة أبا موسى،لاأعلم به،وأنا أروي للخطيئة،ولكن دعها تذهب في الناسنوأخبرنا ابن سلامقال سمعت يونس يقولكالعجب لمن يأخذ عن حماد،وكان يكذب ويلحن ويكسر.[14]

وننتقل إلى طرفة بن العبد، فيذكر له بيته الذي يعالج المسألة ذاتهاوهو قوله:

وأصفر مصبوح نظرت حويره *على النار،واستودعته كف محمد

وقول له:"وهذا البيت يتنازع فيه،فينسبه إليك قوم،وينسبه آخرون إلى"عدي بن زيد"وهو بكلامك أشبه".[15]

اما الرواة الذين ذكرهم فهم :

-مع النابغتين:

في لقائه مع النابغة الذبياني يستشيره في مسألة الرفع في الفعل او النصب لينسب الخطاب إلى المتكلم أو يحكي عن الغائب،فيختار النابغة الرفع،فيجيبه قائلا :"الله درك يا كوكب بني مرة،ولقد صحفعليك أهل من الرواة، وكيف لي بأبوي عمرو،المازني والشيباني وأبو عبيدة وعبد الملك وغيرهم من النقلة[16]،فيحضرون جميعا ويحكمون بخلاف ما قال به النابغة اما النابغة الجعدي فيسأله عن بيته:

وليس بمعروف لنا أن نردها صحاحا،ولا مستنكر أن تعقرا.

[13] - أبو العلاء، المعري، رسالة الغفران، ص178.
[14] - م ن، ص 169.
[15] - ابن سلام، الجمحي،طبقات الشعراء،ص40.
[16] - ابن سلام، الجمحي،طبقات الشعراء، ص78.

أتقولا:ولا مستنكر أم مستنكرا؟فيقول الجعدي:بل مستنكرا.فيقول الشيخ ابن القارح:فإن أنشد منشد مستنكر ما تصنع به؟فيقول:أزجره وأزبره،نطق بأمر لا يخبره.فيقول الشيخ طول الله أمد البقاء:غنا إليه وإنا إليه راجعون ما أرى سيبويه إلا وهم في هذا البيت،لأن أبا ليلى أدرك جاهلية وإسلاما وغدى بالفصاحة غلاما.[17]

إن اللغويين هم أكثر الناس إثارة لمسائل النقدن وأشد إلحاحا على تحري الدقة والصواب في القول ويقول ابن سلام في هذا الصدد:"وكان لأهل البصرة في العربية قدمة بالنحو،وبلغات العرب والغريب عناية،وكان أول من أسس العربية ،وفتح بابها،وأنهج سبيلها،ووضع قياسها أبو الأسود الدؤلي ...وكان رجل أهل البصرة....وإنما ذاك حينما اضطرب كلام العرب فغلبت السليقة،فكان سراة الناس يلحنون،فوضع باب الفاعل والمفعول والمضاف وحروف الجر والرفع والنصب والجزم.[18]

لقد انتصر أبو العلاء على للرواة على النابغة الجعدي،وهذا كان في المرة الأولى أما في المرة الثانية فقد انتصر النابغة الجعدي على ما قال به سيبويه في رواية البيت،لأن النابغة الجعدي عاش الجاهلية والإسلام فما أجدره بالفصاحة.

-مع لبيد بن ربيعة :

في حديثه عن بيت"لبيد بن ربيعة"الذي يقول فيه:

وصبوح صافية وجذب كرينة بموتر تأتى له ابهامها.

وقد ذكر أبا علي الفارسي إذ يقول:"إن أبا علي الفارسي كان يدعي في هذا البيت أنه مثل قولهم استحى،يستحي،على مذهب الخليل وسيبويه لأنهما يريان أن استحيت إنما جاء على قولهم استحايكما أن استقمت على استقام،وهذا مذهب ظريف...

فيقول لبيد بن ربيعة معترضا لعنن لم يعنه:الأمر أيسر مما يظن هذا المتعلق[19] وفيها إشارة إلى النقاد واللغويين.

-أبو علي الفارسي:

[17] - م ن، ص74.
[18] - م ن ص29.
[19] - أبو العلاء المعري،رسالة الغفران، ص 80.

قد صوره أبو العلاء في موقف الحشر"وقد امترس به قوم يطالبونه ويقولون :تأولت علينا وظلمتنا...فجئته فإذا عنده طبقة منهم يزيد بن الحكم الكلابي وهو يقول ويحك،أنشدت عني هذا البيت برفع الماء،يعني قوله:

فليت كفافا كان شرك كله وخيرك عني ما ارتوى الماء مرتوي.

وإذا رجل آخر يقول:ادعيت علي أن الماء راجعة على الدرس في قولي:

هذا سراقة للقرآن يدرسه والمرء عند الرشا إن يلقها ذيب.

افمجنون أنا حتى أعتقد هذا

وكانت هناك جماعة يلومونه على تأويله،فقلت:يا قوم إن هذه أمور هينة،فلا تعنتوا هذا الشيخ فإنه يمت بكتابة القرآن المعروف بكتاب الحجة،وإنه ما سفك لكم دماء ولا احتجن عنكم مالا فتفرقوا عنه.[20]

ونلاحظ هنا وجود اتصال بين موقف الحشر اي يطلب فيه الناس حقهم من غيرهم وبين هذا المطلب اللغوي الذي أراده الكلابي وغيره من الشعراء.

-الخليل بن أحمد الفراهيدي:

لقد أثر عن الخليل إحكام الرواية وصدق الخبروينشده أبو العلاء أبياتا تنسب إليه وتأخد الجواري في الرقص على إيقاعها،فيسأله"لمن هذه الأبيات يا أبا عبد الرحمان؟فيقول الخليل:لا أعلم.فيقول: إنا كنا في الدار العاجلة نروي هذه الابيات لك،فيقول:لا أذكرن شيئا من ذلك،ويجوز أن يكون ما قيل لك حقا.فيقول:أفنسيت يا أبا عبد الرحمان وأنت أذكى العرب في عصرك؟فيقول الخليل:إن عبور الصراط ينفعن الخل مما استودع.[21]

ويجمع مع الخليل نفرا من اللغويين حين يخطر له ذكر الفقاع وهو شراب يؤخذ من الشعير،فيأتي بكل فقاعي أهل الجنة من الشام والعراق وغيرهما،والولدان المخلدون بالسلاسل إلى ذلك المجلس فيسأل عن إسم تلك السلاسل بالعربية فيسكتون،فيجيب أحدهم أنها تسمى البواسن،فيسأل من ذكر هذا من اللغويين فيجيب ابن در

[20] - م ن، ص 110-111.
[21] -م،ن،ص80.

ستويه،فيقول له الخليل"من أين جئت بهذا الحرف؟فيقول ابن در ستويه :وجدته في كتب النضر بن شميل.فيقول الخليل:أتحق هذا يا نضر فأنت عندنا الثقة؟فيقول النضر:قد التبس علي الأمر.[22]

وفي جنة الرجز يمتدح"أبو العلاء" الخليل وأبا عمرو بن العلاء بادئ الأمر حين ذكر له تكلفه قواف ليست بالمعجبة ولا المستحسنة.

"فيغضب رؤبة ويقول:ألي تقول هذا وعني أخذ الخليل وكذلك أبو عمرو بن العلاء....أليس رئيسكم في القديم والذي ضهلت إليه المقاييس كان يستشهد بقولي ويجعلني له كالإمام.[23]

والمعروف أن عمرو بن العلاء راوية مسموع،وقد قال فيه ابن سلام مايلي:"وكان أبو عمرو أوسع علما بكلام العرب ولغاتها".[24]

2-نقد الشعراء:

يمكن القول أن نقد "أبي العلاء" للشعراء كان يسير في اتجاهين اتجاه خلقي وذلك من خلال تصنيف الشعراء إلى طائفة في الجنة وأخرى في الجحيم،وآخر اتجاه فني ويفهم من خلال الميائل النقدية التي كانت بين "ابن القارح"والشعراء وبين الشعراء أنفسهم.خيث قام أبو العلاء بإنزال الشعراء الجنة والجحيم حسب ما قالوه من أشعار إذ اعتمد على البعد الأخلاقي في هذا التصنيف للشعراء أو بالأحرى البعد الديني،مثلما حدث مع "الأعشي"الذي سأله عن سبب دخوله الجنة ،فذكر له قصيدته في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ورغم كونه من أهل الجنة إلا أن أبا العلاء حرم عليه شرب الخمر هناك وقد عوضه عنه بالعسل واللبن،وزهير بن أبي سلمى قد غفر له لأنه كان في الجاهلية ولم ينغمس فيما كان الناس منغمسين فيه وكان هو القائل:

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم

يؤخر،فيوضع في الكتاب فيدخر ليوم الحساب،أو يعجل فينتقم.

[22] - م ن ص 133.

[23] - م ن ص215 .

[24] - ابن سلام، الجمحي، طبقات الشعراء، ص 30.

وقد بنى له قصرا في الجنة وأحل له شرب الخمر هناك،ويجدر الذكر هنا أن ابن سلام قد أشار في كتابه"طبقات الشعراء"إلى طائفة من هؤلاء الشعراء المميزينحيث قال:"وكان من الشعراء من يتأله في نفسه ويتعصر،ومنهم،امرؤ القيس والأعشي،وكان الفرزدق أقول أهل الاسلام في هذا الفن".[25]

أما عبيد بن الأبرص أدخله الجنة لبيت قاله وهذا البيت هو:

من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لايخيب.

وكان له هو الآخر قصرا في الجنة،وبعد ذلك يلتقي بـ"عدي بن زيد"ويسأله كيف كانت سلامتك على الصراط،ثم يدعو عديا إلى رحلة صيد ويركبان سابحين من خيل الجنة. وكان"عدي بن زيد"من أهل الجنة لأنه كن على دين المسيحية أيام الجاهلية فلم يكن يسجد للأصنام أو يعبد الأوثان.

أما لبيد فقد بني له في الجنة ثلاثة أبيات لم ير لها نظيرا في البهاء والجمال،ويسأل الشيخ لمن هذه الأبيات؟فيقال هي لـ"لبيد بن ربيعة"وحين يسأله عن سبب ذلك يجيب:إنها بسبب قولي في الدار العاجلة:

إن تقوى ربنا خير نفل وبإذن الله ريتني وعجل.

وقوله:أحمد الله فلا ند له بيده الخير،ما شاء فعل.

وقوله أيضا:

من هدى سبل الخير اهتدى ناعم البال ومن شاء أضل.

"صيرها ربي اللطيف أبياتا في الجنة،أسكنها أخرى الأبد وأنعم نعيم المخلد.فيعجب هو وأولئك القوميقولون:إن الله قدير على ما أراد".[26]

[25] - ابن سلام،الجمحي،طبقات الشعراء، ص 39 .
[26] - أبو العلاء المعري، رسالة الغفران ص 122 .

والحطيئة الذي كان من أهل الجنة لكنه كان في أقصاها حيث كان في بيت حقير كأنه خفش أمة راعية،إذ أنه لم ينل السعادة الكاملةالتي تكون لأصحاب الجنان،ويخبر الحطيئة الشيخ أنه لم يصل إلى هذا المكان إلا بعد صياط وصياط وشفاعة قريش بسبب صدقه في قوله:

أبت شفتاي اليوم إلا تكلما بستر فما أدري لمن أنا قائله

أرى لي وجها قبح الله خلقه فقبح من وجه وقبح حامله

ثم يقول ما بال قولك:من يفعل الخير لا يعدم جوازيه

لا يذهب العرف بين الله والناس.

لم يغفر لك؟فيقول:سبقت إلى معناه،ولم أعمل به فحرصت الاجر عليه.[27]

ونلمس من خلال هذا حرص"أبي العلاء"على خليقة الصدق وإلزام الشاعر بها ولقد تحدث الرسول صلى الله عليه وسلم عن طائفة الذين يقولون ما لا يفعلون أي يقولون الخير ولا يعملون به.

بسبب بيتيه القائلين:

ابليس أفضل من أبيكم آدم فتبينوا يا معشر الأشرار

النار عنصره و آدم طينه والطين لا يسمو سمو النار.

والأمر نفسه بالنسبةل"عنترة العبسي"إذ زج به في الجحيم لأنه كان يعاقر الخمر ومثله عمرو بن كلثوم وكذلك الأخطل التغلبي الذي يقول له:"مازالت صفتك للخمر حتى غادرتك أكلا للجمر"،ثم يقول له"أخطأت في أمرين،جاء الإسلام فعجزت أن تدخل فيه،ولزمت أخلاق سفيه،وعاشرت"يزيد بن معاوية"وأطعت نفسك الغاوية ،وأثرت ما فني على ما هو باق فكيف لك بالإباق".[28]

النقد الفني:

[27] - م ن ص 157 .
[28] - أبو العلاء المعري، ص 191.

من خلال هذا النوع من النقد نجد المعري في تناوله الشعراء من منظور فني قلما نجده يشير إلى سبب نزول هذا الشاعر الجنة أو النار،حيث كان توجهه النقدي هنا يصب مباشرة في المنحى الفني ونستطيع تقسيم هذا النوع من النقد إلى ثلاثة أضرب:

-الأحكام النقدية الذوقية.

-النقد المعلل.

-البعد اللغوي في نقد الشعر.

وسوف نقف عند نماذج معبرة عن كل نوع من هذه الأنواع الثلاثة.

1-الأحكام النقدية الذوقية:

ويظهر ذلك من خلال ما نلاحظه من إعجاب أبي العلاء بقصيدة من القصائد دون أن يقدم لنا تفسيرا واضحا لمواطن العجب في هذه القصيدة أو تلك،مثل إعجابه بقصيدة المخبل السعدي وهي:

ذكر الرباب وذكر ما سقم وصبا وليست لمن صبا عزم

وإذا ألم خيالها طرفت عيني،فماء شؤونها سجم

كاللؤلؤ السجور توبع في سلك النظام فخانه النظم.[29]

ومع أن هده الأبيات جميلة وأبو العلاء ذكرها لجمالها،إلا أنه لم يخص في مواطن الجمال في هذه الأبيات ويدير حوارا بين النابغة الجعدي والذبياني ويسأله إذا كانت الرباب ابتي ذكرها المخبل هي نفسها التي ذكرها النابغة في قوله:

فما نطق الديك حتى ملأ ت كوب الرباب به فاستدارا.

[29] -المرجع نفسه،ص192

وشبيه بهذا العرض عرض"أبي العلاء" مع الأخطل التغلبي الذي يذكر له أبياتا في وصف الخمر فيعجب بها "المعري"ولا يعلق عليها شيئا إلا ما ذكر فيها إثر خطابه للأخطل بأن هذه الأبيات لطالما أطربت كثيرا من السادات.

ومن هذا ايضا قوله لأوس بن حجر:فلم تزل تعجبني لاميتك التي ذكرت فيها الجرجة وهي الخريطة من الأدم".[30]

نلاحظ أن المعري أعجب من استعمال الشاعر لكلمة الجرجة التي تعني الخريطة من الأدم،ومع المهلهل إذ يعجب أبو العلاء بالقصيدة التي رثى بها أخاه كليبا ونراه هنا يختار من القصيدة كلها مطلعها الذي يقول فيه المهلهل:

أليتنا بذي حسم أنيري إذا أنت انقضيت فلا تحوري.

ويدور حوار بين المعري والمهلهل فيقول له المعري: "و قد كنت إذا أنشدت أبياتك في ابنتك المزوجة في جنب تغرورق عيناي"[31].ثم يقول له إن قصيدتك تلك كانت جديرة أن تطيل الأسف عليه .

ثم يذكر قصيدة المرقش الأكبرالتي مطلعها:

هل بالديار أن تجيب صمم لو كان حيا ناطقا كلم.

ويقول المعري فيها"إنها عندي لمن المفردات،وكان بعض الأدباء يرى أنها والميمة التي قالها المرقش الأصفر ناقصتان عن القصائد المفضليات.[32]

ونلاحظ أن المعري ذا كفاءة نقدية فنية بالغة،ودليل هذا كتبه"عبث الوليد"الذي ألفه في نقد شعر البحتري،وكتابه"معجز أحمد"في نقد شعر المتنبي،إذ كان عصر المعري والذي قبله قد شهد جهودا نقدية وبلاغية ما يمكن اعتباره مدارس لممارسة النشاط النقدي للنصوص علىأكثر من مستوى.

[30] - أبو العلاء المعري،ص 184.
[31] - المرجع نفسه،ص196.
[32] - المرجع السابق،ص56.

وأبو العلاء اراد ان يستحضر اجود ما حفظته دواوين العرب من الشعر ويذكرنا بذوقه العالي في وقوفه عند ذلك من قصائد تذكر أو أبيات تؤثر إذ أن أبا ابعلاء حريص على تتبع البعد الفني في السرد والتوافق مع ما تتيحه معلوماته عن العالم الآخر.

2- النقد المعلل:

كان ابو العلاء في نقده للنصوص والشعراء يحتكم إلى ملكته النقدية حيث بدا في رسالة الغفران ناقدا فنيا يستقصي القضايا ويعلل ويحاججويشير إلى أهم القضايا والمسائلالتي يوقف عندها في نقد الشعر.

ومن مثل ذلك موقفه مع عدي بن زيد الذي يستنشده قصيدته الهادية بعدما عبر له عن انطباعه الخاصإزاء هذه القصيدة قائلا:أنها بديعة من أشعار العرب،فينشد عدي إياها،فيعلق أبو العلاء عليها وعلى عدي بن زيد قائلا:أحسنت والله احسنت،لو كان الماء الراكد لما أسنت".[33]

وبعد ذلك يلتفت أبو العلاء إلى أهم القضايا النقدية التي كان يثيرها النقد الأدبي قبل ابي العلاء ونقاده وهي قضية السرقات الأدبية التي ظهرت خاصة مع الشعراء الذين غلبت عليهم النزعة التي تقسم الشعر لإلى قديم وحديث من أمثال الآمدي وابن أبي طاهر.

والذي تجدر به الإشارة هنا أن"أبا العلاء" قد أشار إلى هذه المسألة من خلال قوله:"وقد عمل أديب من أدباء الإسلام قصيدة على هذا الوزن ،وهو المعروف بأبي بكر بن دريد.

قال:يسعد ذو الجد ويشقى الحريص * وليس لخلق من قضاء محيص.[34]

ثم ينتصر لعدي بن زيد كونه أول من انتزع هذا الكلام على هذا الوزن حيث يقول له:"ألا إنك يا ابا سوادة أحرزت فضيلة السبق".[35]

---

[33] - م ن ،ص56.
[34] - أبو العلاء المعري، 56.
[35] - م ن، ص57.

وقد أشار إلى هذه القضية أيضا"ابن قتيبة"في كتابه الشعر والشعراء من خلال موازنته بين الأعشي وأبي نواس،إذ يقول"وكان الناس يستجيدون للأعشي قوله:

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها.

حتى قال أبو نواس:دع عنك لومي فإن اللوم إغراء وداوني بالتي كانت هي الداء.

فسلخه وزاد فيه معنى آخر،اجتمع له به الحسن في صدره وعجزه،فللأعشي فضل السبق إليه،ولأبي نواس فضل الزيادة فيه.[36]

ويتابع "المعري" مسألة السرقات في موقفه مع النابغة الذي يذكره بقصيدته التي قالها في جارية كانت للنعمان ومطلعها:

ألما على الممطورة المتأيدة أقامت بها في المربع المتجردة.

فينكر النابغة هذه القصيدة،فيتعجب أبو العلاء من ذلك ويسألهعن الذي نسبها إليه،فيجيب النابغة بأن انتحال هذه القصيدة ليست على سبيل التطوع وإنما الغلط،ولعلها كانت لرجل من بين ثعلبة بني سعد.

ثم ينتقل أبو العلاء إلى النابغة الجعدي ويسأله عن سينيته ويقول له ناقدا ومعترضا بأنه يستعمل كلمات لم يسمع بها قط مثل:ربش ،خشش،سمة...،وقام هنا ابو العلاء بنقد الجانب الموسيقي للقصيدة،ولكن النابغة الجعدي يتجاهل ذلك أيضا،فيقول له أبو العلاء:"يا أبا ليلى لقد طال عهدك بألفاظ الفصحاء،وشغلك شراب ما جاءتك بمثله بابل ولا أذرعات" "ولحوم الطير الراتعة في رياض الجنة فنسيت ما كنت عرفت،ولا ملامة إذا نسيت ذلك" "غن أصحاب الجنة اليوم في شغلفاكهون هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون".[37]

[36] - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص17.
[37] - أبو العلاء، المعري، رسالة الغفران، ص73.

ويجعل "أبو العلاء" في الجنة حوارا نقديابين النابغة والأعشي،يبدِه النابغة الجعدي الذي يخاطبه قائلا:يا ابا بصير أهذه الرباب التي ذكرها السعدي هي ربابك التي ذكرتها في قولك:

بعاصي العواذل طلق اليدين * يعطي الجزيل ويرخي الإزارا

فما نطق الديك حتى ملأ * ت الكوب الرباب له فاستدارا

إذا انكب أزهر بين السقا * ة تراموا به غربا أو نضارا .[38]

ويقصد النابغة بهذا ان الكلمة الرباب مسروقة،فيرد عليه الأعشي بأن لفظ الرباب ذكر في أكثر من موضع عند كثير من الشعراء،وأن السرقات لا تكون في الاسماء الشائعة عند الناسولا في المتداول من الكلام وذلك حين يجيبه قائلا:"لقد طال عمرك يا أبا ليلى، وأحسبك أصابك الفند فبقيت على فندك إلى اليوم.اما علمت ان اللواتي يسمين بالرباب أكثر من أن يحصين؟[39]

فيغضب الجعدي ويرد عليه قائلا:أغرك أن عدك بعض الجهال رابع الشعراء الأربعة؟وإني لأطول منك نفسا وأكثر تصرفا،ولقد بلغت بعدد البيوت ما لم يبلغه أحد من العرب قبلي.[40]

وهو هنا يلومه ويلوم بعض النقاد وهذه إشارة تقسيم"ابن سلام"الشعراء وفق طبقات،حيث كانت الطبقة الأولى تضم كلا من امرئ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو بن حجر بن آكل المرارين عمرو بن معاوية بن الحرث بن يعرب...بن كندة،ونابغة بني ذبيان،وإسمه زياد بن معاوية...ويكنى أبا امامة وزهير بن أبي سلمى...والأعش...ويكنى أبا بصير.[41]

فيرد عليه الأعش بأن طول النفس لا يقوم كأساس على التفاضل إذ يقول:"أتقول هذا وإن بيتا مما بنيت ليعذل بمائة من بنائك؟وإن أسهبت في منطقك فإن المسهب كحطاب الليل".[42]

---

[38] - م ن، ص87.
[39] - م ن، ص88.
[40] - م،ن،ص89.
[41] - ابن سلام، الجمحي، طبقات الشعراء، ص41.
[42] - أبو العلاء، المعري، رسالة الغفران، ص89.

وقد كان لابن سلام الجمحي رأي في هذا بحيث يعد الشاعر المكثر أهلا لأن يفضل الشاعر المقل،وقد خالفه في هذا ابن قتيبة الذي ينتصر للمقل المجيد،إذ يقول:"ولا أحسب أحدا من أهل التمييز والنظر،نظر بعين العدل،وترك طريقة التقليد يتطيع أن يقدم أحدا من المتقدمين المكثرين على أحد إلا بأن يرى الجيد في شعره أكثر من الجيد في شعر غيره،والله درا القائل" كأشعر الناس من انت في شعره حتى تفرغ منه".[43]

ويستمر النقاش بين النابغة الجعدي والأعش بعيدا عن روح النقد وذلك عندما يقول الجعدي مغاضبا:"اسكت يا ضل ابن ضل،فأقسم أن دخولك الجنة من المنكرات،ولكن الأقضية جرت كما شاء الله.لحقك أن تكون في الدرك الأسفل من النار،ولقد صلي بك من هو خير منك،ولو جاز الغلط على رب العزة لقلت إنك غلط بك"[44]وبعد ذلك يذكر له أبياتا قالها في المجون والخلاعة،غلى أن يبلغ الغضب بالجعدي فيضربه بكوز من ذهب.وقد فعل أبو العلاء كل هذا فقط من أجل أن يفسد الجو النقدي الخالص،وقد اشار إلى هذا الأمر الذي ما كان ينبغي أن نجده عند أبي العلاء المعري أحد الدارسين مستدلا بموقف أبي العلاء مع الأخطل،يقول:"وفي تقريع ابي العلاء للأخطل انسياق مع رأي أعدائه ممن جعلوا بقاءه على النصرانيةومدحه يزيد ولزامه شعر الخمر سبيلا إلى ازدرائه،وكان الأجدر بأبي العلاء وهو الحر رأيا الحصيف نقدا ان يعرض للأخطل من الوجهات التي تعرض فيها بالنقد لأحوال سائر الأدباء والشعراء الذين أنزلهم منازل رسالة الغفران،وقسمهم على الجنة والنار وعرضهم معارض النقد ففحص أقوالهم وحلل آراءهم في البيان واللغة والإعراب".[45]

ونلاحظ من خلال هذا الكلام أن نقد أبي العلاء ينصب حول ثلاث نقاط النقد الأخلاقي والنقد الفني الخالص والنقد اللغوي وهذه النقاط تختلف فيما بينها عن توجه أبي العلاء المعري وقصيدته النقدية في كل حكم يحكمه.

[43] - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص22.
[44] - أبو العلاء، المعري،رسالة الغفران،ص 97.
[45] - زكي، المحاسني،أبو العلاء المعري،ناقد المجتمع، دار الفكر العربي،ص107

أما الذي يجب الوقوف عنده ما يتعلق بالمناظرة بين الأعش والجعديحيث كان نقد أبي العلاء أول الأمر نقدا فنيا جماليا،لكننا فيما بعد نلاحظ محاكمات بين الشاعرين في الأخلاق والدين،فيدخل في النقد الجمالي حكما أخلاقيا يفسد به النقد الفني.

ولابد أن نشير إلى مسألة هامة في نقد الشعراء،وهي قول أبي العلاء على ألسنة الشعراء: هي أكثر محايتة للطبيعة النقدية التي يدلي بها النقاد،لأنها تذهب إلى تلمس مسائل نقدية هامة.

ومن ذلك ما قاله امرؤ القيس عن الذين أضاغوا الواو في إحدى أبياته "أبعد الله اولئكنلقد أساؤوا الرواية،وغذا فعلوا ذلك،فأي فرق يقع بين النظم والنثر؟وإنماذلك فعله من لاغريزة له في معرفة وزن القريض، فظنه المتأخرون أصلافي المنظوم، وهيهات [46]ويجعل أبوالعلاء مطلع معلقة عنترة في الوجه المضاد لقول ابي تمام :

فلو كان يفنى الشعرأفناه ما قرت * حياضك منه في العصور الذواهب

ولكنه صوب العقول إذا انجلت * سحائب منه أعقبت بسحائب.

وينتقل إلى طرفة فيقول له:"ولو لم يكن لك أثر في العاجلة إلا قصيدتك التي على الدال،لكنك قد أبقيت أثرا حسنا".[47]

– الأحكام النقدية اللغوية:

كان أبو العلاء كثيرا ما يناقش الشعراء،وينقدهم من منظور لغوي حيث كان إما أن يقف عند كلمة وردت في شعر أحد الشعراء ثم يقلبها تقليبا نحويا أو صرفيا،وإما أن يستقصي الكلمة من منظور دلالي،مستحفصا في ذلك كل مل قاله الرواة أو النحاة،ويسأل الشعراء عن معنى بعض الكلمات،أو يسأل اللغويين عن ذلك.

[46] - أبو العلاء، المعري،رسالة الغفران، ص163.
[47] - م ن، ص 183.

وتعتبر هذه الوقفات خير دليل على وجهة نقدية من حيث تقويم الشعر،من جهة الجزالة،كما تدل أيضا على روح الموسوعية اللغوية لدى المعري.

3- المواقف النقدية في رسالة الغفران:

يمكن معرفة مواقف" أبي العلاء"النقدية بصورة أوضح،من خلال القراءة التي تحيل إلى انطباعات نقدية ممزوجة في أكثر الأحيان بمسحة ساخرة في رسم المشاهد،وهناك علاقة كبيرة بما يمليه المعري في رسالة الغفران واللزوميات ،حيث كانت رسالة الغفران تسير في المنحى النقدي ذاته الذي كانت تسيرعليه اللزوميات وقد زادت رسالة الغفران من تعميق نظراته وآرائه اكثر فأكثر،وفي ديوانه اللزوميات وخرت له تجربة لغوية تفضي إلى التلاعب الحي بالدلالة المتامة للكلمة المفردة،هذا التلاعب في بيت المعري القائل:

صرورة ماحالين،ما لكعابها ولا الركن تقبيل لدي ولالمس

ولم أرت النصف الفتاة،ولم ترث بي الربع،بل ربع تطاول أو خمس.[48]

فالكعاب هو خواص المرأة،أما الركن فهو للكعبة،وكلاهم تطلق عليه صفة اللمس والتقبيل،أما في البيت الثاني في الشطر الاول يصرح بعدم زواجه،وبالتالي فلا النصف يرثه من الفتاة،ولا الربع يرثه من الفتاة،وفي الشطر الثاني يحيلنا على مألة أخرى،بالمفردة ذاتها التي هي(الربع والخمس)،فيخيل إلينا أنها مسألة ميراث أيضا،لكن بدا أن الكلمتين إحالتان إلى حقل دلالي آخر تماما،يعود للكعبة المشرفة،وليس إلى الزواج،يقول المفسر للبيتين: "المراد أنه لم يتزوج فيرث أو يورث،وربع وخمس هما من إضماء الإبل،وربما أراد أنه لم يحج ايضا فيحتاج إلى إضماء الإبل ليستطيع قطع الصحراء".[49]

يمكن أن نقف على الإتجاه النقدي في رسالة الغفران من وجهتين اثنتين،الوجهة الإجتماعية،والوجهة الأخلاقية الدينية،ولطول موقف الحشر وطول ما حكي فيه ابن القارح فهو يكشف عنرؤية نقدية خبيئة.

[48] - أبو العلاء المعري، اللزوميلت، ج2،ص5 .
[49] -المرجع السابق، ص 5 .

أ-النقد الإجتماعي:

جعل المعري رسالة الغفران مبطنة بالنقد الإجتماعي،الذي يرمي إلى تعرية النفوس،والكشف عن حقيقة ما تضمر،وقد جعل المعري الموقف برمته محمولا على النقد الإجتماعي،وذلك من خلال قصديته المعلنة ،والصيغة التهكمية التي تحيل على كون المشهد يعبر عن غيره،وليس مقصودا لذاته،ومن ذلك ما نجده من الحوار الذي يديره المعري بين ابن القارح والملك الخازن(رضوان)إذ يقول أبو العلاء حاكيا صورة المشهد:"فلم أزل أتتبع القوافي التي يمكن أن يوصف بها رضوان حتى أفنيتها،وأنا لا أجد عنده مفوتة،ولاظننته فهم ما أقول،فلما استقصيت الغرض فما نجحتدعوت بأعلى صوتي:يا رضوان،يا أمين الجبار الاعظم على الفراديس،ألم تسمع ندائي بك واستغاثتي إليك؟فقالأن رجل لا صبر لي على اللواب،أي العطش،وقد استطلت مدة الحساب،ومعي صك بالتوبة،وهي للذنوب كلها ماحية،وقد مدحتك بأشعار كثيرة،ووسمتها باسمك...وكان أهل العاجلة يقتربون به إلى الملوك والسادات،فجئت بشيء منه إليك لعلك تأذن لي بالدخول إلى الجنة في هذا الباب،فقد استطلت ما الناس فيه،وأنا ضعيف منين،ولا ريب اني ممن يرجو المغفرة،وتصح له بمشيئة الله،فقال: إنك لغبين الرأي ،أتأذن أن آذن ذلك بغير إذن من رب العزة؟هيهات،هيهات.[50]

هكذا يشكل المعري لومته النقدية،وقد سبقها بالحديث عن ابن ابقارح،ووصفه إياه،فهو لا يصبر على اللواب أي العطش.

والمشهد برمته تجاوب في أنحاء نقدية متفرقة،من أنحاء النقد الاجتماعي،من خلال الحوار الذي يضعنا أمام قناعين:الاول ابن القارح،والذي يمثل عالم الأرض،والثاني رضوان الذي يمثل عالم السماء،ويتضح التقابل في الموقف الذي يصدره كل من ابن القارح ورضوان ،فإبن القارح لا يحمل جواز المرور إلى الجنة ويحاول تحقيق غاية في المرور إلى الجنةمن خلال التقرب والتزلف،فيمدح رضوان كما كان يفعل معظم شعراء أهل الأرض،لكن هذه البضاعة المزيفة لا تصلح للإتجار بها في عالم السماء فالجنة في العالم السماوي تجسد العدالة السماوية فيتضح الباطل في

[50] - أبو العلاء المعري، رسالة الغفران ،ص107 .

موقف ابن القارحهذا وهذا يعني ظلال أهل الأرض في سلوكهم هذا،وبذلك يوجه أبو العلاء نقدا عنيفا للقيم السائدة فالشعراء يتاجرون بالقيم ومثلهم القادة والحكام والملوك، ونقد أبي العلاء هذا يصيب المجتمع بأكمله لأن مثل هذه العلاقات المبنية على الرشوة والمداهنةوالتزلق هي السائدة فيه.[51]

وهكذا يرسم أبو العلاء بالمشهد نقدا اجتماعيا موجها،وقدأكثر الحديث عن هذه الصفات بالنقد في اللزوميت التي نختار منها هذه الأبيات:

أمسى النفاق دورعا يستجن به من الأذى ويقوي سردها الحلف.[52]

وأيضا قوله في السياسة:

لقد ساس أهل الارض قوم تفتقر أمور فيما ألفت لهم يد راتق

هم هتكوا بالراح أستار عاذل ولم يحفظوا بالنسك حرمة ناتق

إذا جرحو دنا،فلم يزج عندهم قصاصا أجازوا قتل عذراء عاتق

وصاغوا بما تجفي الولادة مراكنا وزادوا على أسيافهم والمناتق

ولو كان للدنيا لدى الله قيمة لما نظروا في آهلات الرساتق.[53]

كما تحدث أيضا عما قارب أخلاق ابن القارح الذي كشف له بها رسالته جاء قوله:

طلب النساء شبابه حتى إذا وضعت أفارقه تأهل ينسك

وجزته في عرس له أيامه بفعاله، ولكن حبل ممسك

تفل وفي العهد،ليس بذي حلي خير من الغدار وهو ممسك

من مسك ذي دارين أو مسك غدا يلقى بصناعتها العبير ويعسك.[54]

وهذه أبيت أخرى ولا نعتقد أن المعري قالها ورسالة ابن القارح لم تصل إليه بعد،إذ قال:

---

[51] - يوسف، حلاوي، الأسطورةفي الشعر العربي،ط1، دار الحداثة، بيروت،1992، ص187-188

[52] - أبو العلاء المعري، اللزوميات ج2، ص154.

[53] -م ن، ص 202-203 .

[54] - أبو العلاء، المعري، اللزوميات ص214.

ومنه سجايا المخازي أن ترى أشرا ترمي عشيرك بالداء الذي فيكا

وهل ألم ودادا رم من شعث وقد لمعت تلافي في تلافيكا

ولم أصاحبك في تيهاء مقفرة بها يصافن ماء من يصافيكا

إياك عني فأخشى أن تحرقني فإنما تقذف النيران ما فيكا.[55]

ويمكن القول أن اللزوميات كلها استخبار نقدي من قبل المعري للنفس الإنسانية والوجود والأفكار أما الغفران فجاءت بفضل ما توفره من حوار ومشاهد كالتماس نقدي لعند التوجه الأخروي،وهو نقد مستخلص من رحم الحوار المعروض على مسرح العالم الآخر .

ويمكن الكشف عن القضية الخبيئة لهذا النقد،كون العالم الآخر قد جعل من الشفافية التي لا تعبر إلا عن منطق نقدي صريح،حيث عبر المعري عن ذلك من خلال قضية تأويل اللغويين لشعر الشعراء بموقف بن الحسن الكلابي الذي أخذ يلوم أبا علي الفارسي،وإن المعري تحدث على لسان ابن القارح مدافعا عن الفارسي بأن الأمر أهون مما أنكر هذا الشاعر أو ذاك.

وإذا كان هذا الموقف يحيل إلى قضية نقدية لغوية،وقد أدرج في رسالة الغفران ضمن مسائل النقد اللغوي غير أن المعري يستغل عالم المعراج أيضا وما فيه من حركية مشاهدة ليؤيد نزعته النقدية الاجتماعية.

ب– النقد الأخلاقي الديني:

خصص المعري فصولا من رسالة الغفران لينفذ لمعالجة بعض سجايا الناس،وكانت مسألة الكذب والمداهنة أكبر مسألة نقدية أخلاقية عالج المعري في رسالة الغفران،حيث جاء نقده لهذه القضية رريحا نافذا على لسان "آدم"عليه السلام،إذ قرأ عليه ابن القارح شيئا من الشعر المنسوب إليه،فرد قائلا:أعزز علي معشر أبيني،إنكم في الضلالة

[55] - م،ن،ص235.

منهوكون،أليت ما نطقت هذا النظيم ولا نطق في عصري،وإنما نظمه بعض الفارغين ،فلا حول ولا قوة إلا بالله،كذبتم على خالقكم وربكم ثم على آدم أبيكم ثم على حواء أمكم،وكذب بعضكم على بعض.[56]

فالكذب هنا وإن كان حمل على قضية لغوية،فإنه ولما كانت التهمة على لسان أبينا آدم عليه السلام فقد حمل بعدا أخلاقيا ليشمل الكذب في انتحال الشعر والكذب عل مستوى المعاملات بين الناس أما عن الكذب في انتحال الشعر قال"المفضل الضبيعن حماد الرواية" قد سلط على الشعر من حماد الرواية ما أفسده،فلا يصلح أبدا فقيل له:وكيف ذلك؟ايخطئ في روايته أم يلحن؟قال ليته كان كذلك، فإن أهل العلم يردون من الخطأ إلى الصواب،لا ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها،ومذاهب الشعراء ومعانيهم،فلا يزل يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله في شعره،ويحمل ذلك عنه في الآفاق،فتختلط أشعار القدماء،ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد،وأين ذلك؟[57]

وأما عن الكذب بين الناس فيقول المعري في بداية رده عن رسالة ابن القارح "...وتعايش العالم بخداع، وأضحوا من الكذب في إبداع.."[58]

وحينها يقوم المعري بالنقد على هذه المسألة فكأنما يناقش مسألة صحة المصادر الناقلة للمعلومة وصدق قائلها وهي مسألة كانت لها أهمية في الوقت الذي عاش فيه المعري.

وقد تعرض المعري لقضية الكذب في الفنون العلمية وانه لا يصلح في هذا المحال إذ قال بلهجة من يهجو من كثرة الكذب في اللزوميات قائلا:

فحدثوني بغير مين عن الثريا وعن سهاها.[59]

وشبيه هذا البيت كثير في اللزوميات.

[56] - أبو العلاء، المعري، رسالة الغفران،ص203.
[57] - أبو الفرج، الأصفهاني، الأغاني،ج6، ص85 .
[58] - أبو العلاء، المعري،رسالة الغفران، ص 257 .
[59] - أبو العلاء، المعري، اللزوميات، ج2،ص620 .

وننتقل إلى موقف الحشر حيث جعل المعري منه موقفا نقديا في وجه أولئك الذين مسهم فكر المد الشيعي آنذاك، وجعل ابن القارح الذي دخل الجنة بسببهم واحد منهم،ألا وهو الإعتقاد القائل بأن من عرف الإمام تسقط عنه التكاليف كما يظهب فريق من الفلاة، ومن خلال هذا السياق ندرك مغزى ضياع كتاب التوبة لابن القارح ثم نجاته من ذلك بإدراكه للركب الفاطمي وتعرفه إليهم وتعرفهم إليهم.[60]

ولونظرنا إلى شخصيات موقف الحشر لوجدناه موقفا شيعيا صرفا وهو موقف أثار كثير من الساؤلات لدى الباحثين،فبعضهم كان يرجعه إلى تأثر المعري بفوضة الحياة الدينية في عصره وما شاع فيها من مذاهب وأفكار وطوائف،كقول أحدهم:"وتجدر الإشارة هنا إلى ما جاء مندكر لعلي ابن أبي طالب وصحبته للنبي عندما استفاتبه من أرادوا شفاعته فبعث إليهم بعلي ابن أبي طالب...والعصر غلب عليه التشيع،بل إن ابا العلاء نفسه وقع في دائرة الفاطمية.[61]

وهذا الرأي شبيه برأي آدم متز الذي يحمل المعري مسؤولية تاريخية كبرى،حيث يقول:"واستطاع الإسماعيلية نشر موجة الذعر والخوف بين الناس بواسطة دعاتهم الذين كانوا يتقنون السحر والشعوذة ويستطيعون بواسطته أن يبهروا عقول الناس ويسيطلروا عليهم...وكذلك خشي بطشهم الكثير ون من المفكرين والشعراء،فإبن حزم يجتزئ في ذكرهم و أبو العلاء يسكت عنهم لقربه من طائل يدهم،أما ابن النديم فينقل في بيان مذهبهم.ومما يؤسف أن ابن حزم يكاد يسكت عن الإسماعيلية سكوتا تاما يدعو إلى الإستغراب وهو يكتفي بأن يقول بأنهم والقرامطة طائفتان خارجتان عن الإسلام جملة و قائلتان بالمجوسية الحضى وكذلك سكت عنهم أبو العلاء في رسالة الغفران فلم يقل إلا قليلا جدا،ولعل وجوده على مقربة من سلطانهم هو الذي أمسك لسانه عنهم"[62]

أجل لقد سكت أبو العلاء عنهم في القسم الثاني من الرسالة ،أما في القسم الأول فقد جعل موقفا ومعرضا كاملا للحديث عنهم فنيا ، ولو تفحصنا جيدا في هدا الكلام الذي يقال فيه تعرية فاضحة لمذهبه ومذهب من إعتنقه

[60] -فوزي،محمد، أمين، رسالة الغفران بين التصريح والتلميح،ص110.
[61] -المرجع نفسه ، ص101.
[62] - م ن، ص101.

وهذا من خلال التصور النقدي الذي يحيل عنه المشهد العام الذي نلخصه في النقاط الوصفية التالية : -- علي بن أبي طالب يخلص الأعش من الزبانية الشيء نفسه بالنسبة لتميم بن عقيل الذي خلص بعد شفعات النجاشي .

- أبو هدرش كان من أهل الجنة لأن ممن قاتل مع علي في معركة صفين .

-موكب فاطمة وأبناء الرسول الكريم موكب موقر مبجل .

-فاطمة رضي الله عنها تأمر الجارية بحمل ابن القارح على الصراط بعدما استنفد جميع حيله عند رضوان الخازن .

ويضهر من خلال هذه المشاهد على أن المشاهد يحيل على أن الجنة لا ينالها أحد إلا على شفاعة الشيعة ولايدخلها من الناس إلا من اتصل بهم من قريب أو بعيد .

وإذا حملنا المشهد محمل النقد على أن المعري كان يعرض بمعتقد هؤلاء الصمت لصلح لدينا ما أراده المعري حقيقة،خاصة وأنه في اللزوميات صرح بذلك حيث قال :

أرادو الشر وأنتظروا أماما يقوم بطي ما نشر اللبني

فإن يك ما يوملة رجال فقد يبدي لك العجب الخفي

أذا أهل الديانة لم يصلوا فكل هدى لمذهبهم أبى .[63]

ونلاحظ أن المعري في هذه الأبيات ينتصر لعمل الخير لا في إعتقاد الإمام وهذا مذهبه الشائع في التدين ومن خلال هذا نستطيع فهم موقف الحشر على أنه تعريض بغباوة الناس في صفة دخولهم الجنة وطرقها ، وهنا نستنكر قول المعري على لسان أحد الشعراء الذين لقيهم ابن القارح في الجنة فبادره "تريد أن تسألني، بم غفر لي ؟ وأهل الجنة أذكياء لا يخالطهم الأغبياء.[64]

[63] - أبو العلاء المعري، اللزوميات، ج2، ص641 .
[64] - أبو العلاء المعري، رسالة الغفران، ص53 .

و المعري هنا يصف كل من دخل الجنة بغير قول يميل أو فعل حسن بالغباوة وهكذا يبدو النقد واضحا وتبدو معه مرامي أبي العلاء وتوجهاته النقدية اتجاه ابن القارح " ولم يكن المعري متجنيا على الرجل لأن ما ورد حول ابن القارح على أقلام الذين ترجموا له لم يتضمن سيرة حميدة وثناءا عطرا ، وقد يكون أبو العلاء نتيجة لذلك قد قصد الى التعريض بإبن القارح "[65].

ورسالة الغفران في جلها إشارات نقدية ، من خلال متابعة مجالس الشعراء و اللغويين و النقاد لتأخد المجالس و المحاورات أبعادا نقدية بعيدة في الأخلاق والدين كما لها أطرافا مختلفة –وفق الدراسات المختلفة لأبي العلاء –هي الإنسانية والفكر و باقي ما كان يشغل المعري .

[65] - عمر، الدقاق، ملامح النثر العباسي، دار الشرق العربي، بيروت، ص350 .

خاتمة:

رسالة الغفران هي رحلة تخيلها أبو العلاء في الجنة وفي المحشر وفي النار ،وقد ناقش بعض الشعراء والأدباء وحتى اللغة يين في بعض المسائل اللغوية والقضايا النقدية ،فالمعري بسط جل آرائه في أرفع أدب وأجل بيان.

ونلاحظ من خلال وقوفنا على بعض المسائل و القضايا النقدية في الرسالة أن نقد المعري كان نقدا لغويا محظا، ولا يعني هذا أن نقده كان مقتصرا فقط على النقد اللغوي ،فقد عرفت الرسالة أنواع أخرى من النقد مثل النقد الأخلاقى و الديني و الإجتماعي، لكن المسائل اللغوية هي التي كان لها الإهتمامالكبير من طرف أبي العلاء و ركز عليها في محاوراته ومناقشاته مع الشعراء والأدباء واللغويين إذ يمكن تقسيم الرسالة إلى قسمين : قسم لغوي والآخر أدبي .

وتعد رسالة الغفران مصدرا مهما من مصادر النقد الأدبي القديم لما حوته من مباحث نقدية مهمة و أساسية في النقد الأدبي .

إذ يمكن القول أن المعري صاحب خليقة لغوية خاصة ،لأنه كان في الرسالة مسرفا إسرافا متجاوزا في العملية النقدية .

قائمة المصادر والمراجع:

أ- المصادر :

1- القرآن الكريم.

2- ابن سلام الجمحي ،طبقات فحول الشعراء ،ط1،دار الكتب العلمية،بيروت ،لبنان،1982.

3- ابو فرج الأصفهاني، دار الثقافة، بيروت،لبنان،د-ت.

4- ابن قتيبة ،الشعر و الشعراء،ط1،دارالكتب العلمية،بيروت،لبنان،1981.

5- ابوالعلاء ،المعري ،رسالة الغفران ،دار صادر ،د-ت.

6- ابو العلاء ،المعري ،اللزوميات ،ج2 ،دار الكتب العلمية ،بيروت ،لبنان ، د-ت.

ب- المراجع :

7- آدم ميتز ،الحضارة الإسلامية في القرن الرابع هجري ،تح :محمد ابو ريدة ،ط4 ،ج1 ،دارالكتاب العربي ،1967

8- أحمد ،تيمور باشا،أبو العلاء المعري أخباره شعره معتقده،مطبعة لجنة التأليف والترجمة و النشر، القاهرة،1940.

9 - بنت الشاطئ ، الغفران دراسة نقدية ،ط3 ،دار المعارف ،مصر .

10- تغريد النعمان ،زعيمان ،الآراء الفلسفية عند أبي العلاء و عمر الخيام ،ط1،الدار الثقافية للنشر ،القاهرة

11- جورجي زيدان ،تاريخ آداب اللغة العربية ،ج1 ،دار مكتبة الهلال ،بيروت لبنان ، 1983.

12- زكي، المحاسني ،أبو العلاء المعري ،دار الفكر العربي،بيروت لبنان .

13- منير ،سلطان ،التضمين و التناص (وصف رسالة الغفران للعالم الآخر) نموذجا ،منشأة المعارف الإسكندرية ،2004.

14- عبد القادر الخلادي ، عمرالدسوقي ،محمد الصادق عفيفي ،الدراسات الأدبية ،رسالة الصحابة ،رسالة الكندي ، رسالة الغفران ،ط5 ،ج2 ،دار الفكر ،1970.

15- عبد القادر،محمود،رحلة إلى الدار الآخرة،ط1،مركز الكتاب للنشر، مصر الجديدة، القاهرة،1997 .

16- سناء،خضر ،النظرية الخلقية عند أبي العلاء بين الفلسفة والدين ،دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ،الإسكندرية .

17- فوزي محمد أمين ،رسالة الغفران بين التلميح و التصريح ،دار المعارف الجامعية الإسكندرية،1993

18- عمر ،الدقاق،ملامح النثر العباسي ، دار الشرق العربي ، بيروت .

19- يوسف حلاوي الأسطورة في الشعر العربي ،ط1،دار الحداثة ،بيروت،1992.

20- الموسوعة العربية العالمية globale.arabic encyclopedia .